الفصل الثاني

الحياة الاجتماعية

١

الحضارة والثراء والترف

لما فتحج العرب العراق وإيران والشام ومصر ورثوا ما في الأولى والثانية من الحضارات الساسانية والكلدانية والآرامية وما في الثالثة والرابعة من حضارات بيزنطية وسامية قديمة ومصرية، وأخذوا يكونون من ذلك ومن تراثهم العربي الخالص حضارتهم الإسلامية، وكان طبيعياً أن تغلب على الأمويين بدمشق الحضارة البيزنطية وما كان بالشام من عناصر سامية حضارية، حتى إذا نقل العباسيون حاضرة الخلافة إلى العراق غلبت عليهم الحضارة الساسانية وغلبت على ما كان به من عناصر كلدانية وآرامية، وهى تبدو واضحة في بناء بغداد إذ أقامها المنصور مستديرة على شاكلة طيسيفون المعروفة باسم المدائن حاضرة الساسانيين، وابتنى فيها قصره المعروف بقصر الذهب على طراز قصورهم ذات الأواوين الفخمة.

وقد كشفت حفائر سامراء عن طريق بناء الدور والقصور لا فيها فحسب، بل أيضاً في بغداد، فقد كان يصل بين الدار والقصر وبين الشارع أو الدرب دهليز مسقوف[1] يفضي إلى فناء واسع

١ انظر في ذلك كتاب الحضارة الإسلامية لآدم ميتز (الترجمة العربية) ٢/ ١٥١ وما بعدها، وراجع وصف إيوان قصر

obeikandl.com

يسلم إلى القاعة الكبرى أو الإيوان، وتتناثر في الدهليز والفناء غرف متجاورات للسكنى والمرافق المنزلية، وتتصل بالإيوان بعض الغرف الصغيرة. وبجانب الفناء الكبير للدار أفنية صغرى ثانوية تعلوها بعض القباب، وأكبرها جميعاً قبة الإيوان. وفى الدار حمامات ومجار تحت الأرض وسراديب معدة للسكنى، وتكثر الأساطين في الفنية، وتكثر الشرفات وتلحق بها بعض البساتين وبعض النافورات والبرك. وكانت مصاريع الأبواب تصنع من الخشب المحلى بالنقوش وتتألق النوافذ بالزجاج الملون، وزخرف الحيطان بالنقوش المستوحاة من الطير والحيوان والأشجار والأزهار، وقد يذهب السقف والأبواب والحيطان وتعلق هنا وهناك ستائر الحرير المزركشة، وقد تحفر على الحيطان بعض الصور كالعنقاء، أما أرض الدار فكانت تموج بالبسط الإيرانية والأرمنية والطنافس ومناضد الآبنوس والتحف الثمينة وتماثيل العقيان والجامات المذهبة والأواني المرصعة بالجواهر.

ولا ريب في أن هذا البذخ إنما كان يتمتع به الخلفاء وحواشيهم من البيت العباسي ومن الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة ومن اتصل بهم من الفنانين شعراء ومغنين ومن العلماء والمثقفين، وكأنما كتب على الشعب أن يكدح ليملأ حياة هؤلاء جميعاً بأسباب النعيم، أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق، ومرد ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد والعنف الشديد، وقد مضوا هم وبطاناتهم يحتكرون لأنفسهم أمواله وموارده الضخمة، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد، وطبقات قتر عليها في الرزق، فهي تشقى إلى غير حد، واضطرب أوساط الناس من التجار وغيرهم بين الشقاء والنعيم.

وكانت خزائن الدولة هي المعين الغدق الذي هيأ كل هذا الترف، فقد كانت تحمل إليها حمول الذهب والفض ة من أطراف الأرض، حتى قالوا إن المنصور خلف حين توفى أربعة عشر مليوناً من الدنانير وستمائة مليون من الدراهم[1] وإن دخل بيت المال سنوياً لعهد الرشيد كان نحو سبعين

الأمين في طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٢٠٩ ووصف إيوان قصر المعتصم في الموشح للمرزباني ص ٣٠١.

١ المسعودي ٣/ ٢٣٢.

مليوناً من الدنانير[1]. وكانت هذه الأنهار الدافقة من الأموال تعصب في حجور الخلفاء ومن يحف بهم من بيتهم ومن الوزراء والقواد والولاة والعلماء والشعراء والمغنين. ونسوق من ذلك أطرافاً تصور ما آل إليه ذلك من شيوعه الإقطاع والثراء العريض في الطبقة الحاكمة وحواشيها ومن يلوذون بها، فقد روى عن المنصور أنه فرض لكل شخص من أهل بيته ألف ألف درهم في كل عام[2]، ويقال إن غلة الخيزران زوجة المهدى من إقطاعاتها كانت تبلغ سنوياً مائة وستين مليوناً من الدراهم[3]، وكانت إقطاعات محمد بن سليمان بن على العباسي والى البصرة تدر عليه كل يوم مائة ألف درهم[4]، وكانت للفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين قطيعة تغل له سنوياً مليون درهم[5]، ولعلنا لا نعجب بعد ذلك إذا عرفنا أن عمرو ابن مسعدة وزير المأمون خلف بعد وفاته ثمانين ألف ألف دينار ونقل ذلك إلى المأمون فلم يأخذه العجب، بل قال: هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا[6].

وكان الخلفاء والوزراء والولاة والقواد يغدقون على العلماء والأطباء والشعراء والمغنين، ورسم المهدى لمروان بن أبي حفصة مائة ألف درهم على مدحته ذائع مشهور، وكان يصنع الصنيع نفسه مع المغنين[7] حين يطرب لبعض أصواتهم، وتجاوز رسمه لمروان ابنه الهادة فأعطاه يوماً على مدحته فيه مائة وثلاثين ألف درهم[8]، وأطربه مغن فأهداه سبعمائة[9] ألف دينا. وكان الرشيد بحراً فياضاً ما يني ينهل على العلماء والفقهاء من أمثال قاضيه أبي يوسف والأصمعي والكسائي،

---

١ انظر مقدمة ابن خلدون (طبع المطبعة البهية) ص ١٢٧ والجهشياري ص ٢٨١ وضحى الإسلام (الطبعة الأولى) ١/ ١١١

٢ طبري ٦/ ٣٢٧.

٣ المسعودى ٣/ ٢٥٧.

٤ الجهشياري ص ٢٥٠.

٥ المسعودي ٣/ ٢٣٦

٦ النجوم الزاهرة ٢/ ٢٢٧.

٧ أغاني (طبعة دار الكتب) ٦/ ٢٢

٨ النجوم الزاهرة ٢/ ٦٤ والأغاني ١٠/ ٨٠ ويقال إن سلماً الخاسر أنشده مدحة فيه فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم انظر الجهشاري ص ١٧٣.

٩ طبري ٦/ ١٣٩

والأطباء من مثل جبرائيل بن بختيشوع، ويقال إنه صار إليه في عهده ما يزيد على أربعة ملايين من الدراهم[1]، وكان يجزل للشعراء والمغنين من نواله، ويكفى أن نعرف أنه وصل سلما الخاسر وحده لمدائحه فيه بعشرين ألف دينار[2]، وطرب يوماً لغناء مخارق فأقطعه ضيعة وداراً ووصله بثلاثة آلاف دينا[3]، أما مغنيه الأثير عنده وهو إبراهيم الموصلي فيقال إن صلاته له تجاوزت مائتي ألف دينار[4] أما الأمين فقد تجاوز بصرته كل حد حتى قالوا إنه أجاز عبد الله بن أيوب التيمي الشاعر يوماً بمائتى ألف درهم[5]، وطرب ليلة لغناء إسحق الموصلي، فأعطاه ألف ألف درهم[6]، وكان يعجب بمغنية تسمى بذلا، فأنفق عليها أموالاً طائلة، ويقال أنه أهداها من الجوار ما لم تملك واحدة مثله[7]. وكانت المأمون كثير الإغداق على حاشيته حتى قالوا إنه فرق في ساعة واحدة أربعة وعشرين ألف ألف درهم[8]، ويروى ابن تغرى بردى أنه أمر يوماً لكل من ابنه العباس وأخيه المعتصم وعبد الله ابن طاهر بخمسمائة ألف دينار. وعجب ابن تغرى بردى من تفريقه هذه المبالغ الطائلة، فعقب على ذلك بقوله: لعل الدينار يوم ذاك لم يكن مثل دينارنا اليوم[9] وكأنما ذهب عن ابن تغرى بردى أن أموال الدولة كلها كانت في أيدي المأمون وسابقيه وتاليه يبذلونها للناس حسب مشيئتهم وينثرونها عليهم نثراً.

ونافسهم الوزراء في هذا البذل الواسع، وللبرامكة فيه ما ليس لأحد، حتى ليقال إنه لم يكن يرى لجليس خالد البرمكي دار إلا وخالد بناها له، ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له، ولا دابة إلا

---

١ عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (طبعة دار الفكر بيروت) القسم الأول من الجزء الثاني ص ٥٨.

٢ أغاني طبعة (الساسي) ٢١/ ٧٧.

٣ أغاني ٢١/ ١٤٤

٤ أغاني طبعة (دار الكتب) ٥/ ١٩٢.

٥ النجوم الزاهرة ٢/ ١٨٩

٦ أغاني ٥/ ٣٦٨.

٧ أغاني (ساسي) ١٥/ ١٣٨.

٨ طبري ٧/ ٢١٢

٩ النجوم الزاهرة ٢/ ٢٠٥

وخالد حمله عليها[1]، وصنيع ابنه يحيى وولديه جعفر والفضل في هذا الباب فوق صنيعه درجات، فقد كانت بأيديهم خزائن الدولة لعهد الرشيد، فملأوا منها أيدي العلماء والأطباء والمترجمين والمغنين والشعراء بالأموال، بل بالثروات الضخمة، على نحو ما يحكى من أنهم أعطوا إبراهيم الموصلي يوماً ستمائة ألف درهم وضيعة بمائة وستين ألفاً[2]، وأعطى يحيى البرمكي يوماً ابنه إسحق مائة ألف درهم ليبتاع بها داراً وأعطاه ابنه جعفر مائة ألف لفرشها، وأعطاه ابنه الفضل مائة ألف لزخرفتها، وأعطاه ابنه محمد مائة ألف رابعة لنفقتها[3]، وبلغ - فيما يقال - ما أعطوه لسلم الخاسر الشاعر عشرين ألف دينار[4]، وكأنهم كانوا يبارون فيه الرشيد. وكان ينافسهم في هذا البذل الواسع الفضل بن الربيع وبنو سهل وكبار الولاة والقواد من أمثال معن بن زائدة وابن أخيه يزيد بن مزيد الشيباني وابنه خالد ويزيد بن حاتم المهلبي وأخيه روح ومحمد بن حميد الطوسي وأبي دلف العجلي، وآل طاهر وفى مقدمتهم طاهر نفسه، ويقال إن صلاته بلغت يوماً ألفى درهم وسبعمائة ألف وأن ابنه عبد الله تجاوز بصلاته يوماً هذا الرقم، بل لقد ضاعفه إذ بلغ به أربعة آلاف ألف درهم وسبعمائة ألف[5].

وكان لهذه السيول التي كانت ما تني تسيل إلى حجور العلماء والأطباء والمترجمين والشعراء والمغنين أثرها الواسع في نهضة العلوم والآداب والفنون، فقد كفى أصحابها مئونة العيش، وكان منهم كثيرون يرتب لهم رزق معلوم يأخذونه في كل شهر أو في كل سنة، بل لقد كان منهم وخاصة من المغنين والشعراء من يثرى ثراء فاحشاً حتى ليقال إنه صار إلى إبراهيم الموصلي المغنى أربعة وعشرين مليون درهم سوى رزقه أو راتبه الجاري وهو عشرة آلاف درهم في كل شهر وسوى غلاّت ضياعه[6]، ويقال إن سلماً الخاسر خلف حين توفى خمسين ألف دينار[7]، وما وصل الأصمعي

---

١ الجهشياري ص ١٥٠

٢ أغاني (طبعة دار الكتب) ٥/ ٣٨

٣ أغاني ٥/ ٣٠٨ وما بعدها.

٤ أغاني (ساسي) ٢١/ ٧٧

٥ النجوم الزاهرة ٢/ ١٩٥

٦ أغاني ٥/ ١٦٣

٧ أغاني (ساسي) ٢١/ ٧٧

من الرشيد والبرامكة يتجاوز كل حد، وكذلك ما وصل أبا يوسف القاضي من الرشيد، ويقال إنه دخل عليه وفى يده درتان بديعتان يقلبهما وينظر فيهما، فقال له: هل رأيت أحسن منهما؟ فأجابه: نعم الوعاء الذي هما فيه، فألقى بهما إليه[1]، ويروى أن زبيدة زوجة الرشيد سرت بإحدى فتاواه فأهدته حقاً من فضة بداخله حقان مملوءان طيباً، وبأحدهما جام من ذهب مملوء دراهم وبالثاني جام فضة مملوء ذهباً، مع غلمان وتخوت من ثياب وبعض الدواب الفارهة[2]. وسنعرض في الفصل التالي لما سكبه الخلفاء والوزراء والولاة وعلية القوم من أموال على العلماء والمؤدبين والأطباء والمترجمين مما جعل حياتهم نعيماً خالصاً.

وطبيعي أن تدفع هذه الأموال لا إلى النعيم فحسب، بل أيضاً إلى الترف في الحياة وكطل أسبابها المادية من دور مزخرفة وفرش وثيرة وثياب أنيقة معطرة ومطاعم ومشارب من كل لون والتماس لكل أدوات الزينة والتفنن فيها تفنناً يتيح كل ما يمكن من استمتاع بالحياة. ويصور ذلك من بعض الوجوه ما يروى عن مجلس للمهدى كان يجلس فيه على فرش موردة وعليه ثياب موردة وعلى رأسه جارية تلبس هي الأخرى ثياباً موردة[3]، وما يروى عن مجلس الرشيد من أنه كان يعبق بالطيب والزعفران والأفاويه من كل شكل[4]، وأيضاً ما يروى عن زواج المأمون ببوران بنت وزيره الحسن بن سهل، فقد انفق فيه ما يفوق أغرب القصص الخيالية. إذ قيل إن أباها فرق على حاشية المأمون رقاعاً بأسماء كثير من الضياع وبدراً من الدنانير والدراهم كل بدرة عشرة آلاف، وأعطى المأمون بوران ألف ياقوتة وأوقد لها شموع العنبر وبسط لها حصيراً منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت، ونثرت جدتها عليها حين جلس إليها المأمون ألف درة[5]. وينوه المؤرخون بأناقة المعتصم حتى قيل إن ثيابه كانت تشبه بالزهرة لتألقها[6]، واشتهر بلبس قلانس طويلة ذات

---

١ النجوم الزاهرة ٢/ ١٨٢

٢ المسعودي ٣/ ٢٦٠

٣ الجهشياري ص ١٦٠

٤ الطبري ٦/ ٥٣٧

٥ مقدمة ابن خلدون ص ١٢١ والطبري ٧/ ١٨٧ واليعقوبي ٣/ ١٨٦ والمسعودى ٣/ ٣٥١ وابن طيفور ١١٤ وابن الطقطقي ص ١٦٧.

٦ أغاني (طبعة دار الكتب) ٥/ ٣٤٥

ألوان مختلفة سميت بالمعتصميات، كما اشتهر بأنه ألبس قواده وكبار جنده دراعات الديباج المنسوجة بالذهب المرصعة باليواقيت والأكاليل المرصعة بالدرر من كل لون[1]، ويصف بعض المغنيين مجلس الواثق فيقول: "لم يزل الخدم يسلمونني من خدم إلى خدم حتى أفضيت إلى دار مفروشة الصحن ملبسة الحيطان بالوشى المنسوج بالذهب ثم أفضيت إلى رواق أرضه وحيطانه ملبسة بمثل ذلك، وإذا الواثق في صدره على سرير مرصع بالجواهر وعليه ثياب منسوجة بالذهب"[2]. وكان الوزراء وغير الوزراء من علية القوم يحيون هذه الحياة المترفة وينغمسون فيها انغماساً، جامعين لقصورهم ومجالسهم كل ما يمكنهم من طرف، ويصور ذلك – من بعض الوجوه – ما يروى عن الأصمعي من أنه دخل على الفضل بن يحيى البرمكي في يوم بارد من أيام الشتاء "فإذا هو في بهو قد فرش بالسمور (ضرب من الفراء) وهو في دست منه وعلى ظهره دواج (ثوب) سمور أشهب مبطن بخز، وبين يديه كانون فضة فوقه أثفية ذهب في وسطها تمثال أسد رابض في عينيه ياقوتتان تتوقدان"[3].

وطبيعي أن يشيع في هذا الجو الزاخر بالترف التأنق في الملبس والثياب، وقد عم حينئذ ببغداد لبس الأزياء الفارسية، ومر بنا في الفصل السابق كيف كانت كل طائفة من طوائف الموظفين ورجال الدولة تلبس زياً خاصً بها يميزها من الطوائف الأخرى. وكان المنصور أول من دفع إلى ذلك إذ رسم للوزراء لبس الدراعات والطيلسانات والشاشيات، وأمر أفراد حاشيته بلبس القلانس الطوال مما جعل أبا دلامة مضحكه ينشده[4]:

وكنا نرجى من إمام زيادة ... فزاد الإمام المصطفى في القلانس

تراها على هام الرجال كأنها ... دنان يهود جللت بالبرانس[5]

وكان الشعراء يلبسون الوشى والمقطعات الحريرية[1]، ويلبس المغنون قطوع الديباج والخز[2]،

---

١ المسعودي ٤/ ٩-١٢

٢ أغاني ٤/ ١١٦

٣ طبقات الشعراء لابن المعتز (طبع دار المعارف) ص ٢١٤.

٤ أغاني ١٠/ ٢٣٦

٥ الهام: الرءوس جللت: غطيت البرانس كالقلانس، والشاشيات: أغطية للرأس

والخز[٢]، ويقال إنه كان لعمارة بن حمزة أحد كتّاب الخراج ألف دواج من صوف وفراء[٣].

واستكثر حينئذ من العطور وأنواع الطيب من الغالية والمسك والكافور والعنبر والروائح الأرجة التي كانت تستخلص من البنفسج والنرجس والنيلوفر وغير ذلك من الأزهار، واشتهرت جور الفارسية بماء الورد وأدهنة الزعفران.

وبالغ النساء حرائر وجواري في زينتهن وأناقتهن، فكن يرفلن في الثياب الحريرية ويختلن في الحلي والجواهر متخذات منها تيجاناً وأقراطاً وخلاخيل وعقوداً وقلائد، وقد ينظمنها على شعرهن[٤] أو على عصائبهن[٥]، ويقال إن دنانير جارية البرامكة كانت تتحلى بعقد من الجوهر بلغت قيمته ثلاثين ألف دينار كان قد أهداه غليها الرشيد[٦]. وكن يتعطرن بأنواع الطيب من مفرقهن إلى أقدامهن، ويقال إن عريب المغنية كانت تغسل شعرها من جمعة إلى جمعة وتغلفه في كل غسلة بستين مثقالاً مسكاً وعنبراً[٧]. وكن يمشطن شعورهم بأمشط من الصدف والصندل[٨] ويعقصنه أو يرسلنه غدائر تنوس، وقد يلوينه على أصداغهن في هيئة النون أو هيئة العقرب، وفي ذلك يقول أبو نواس واصفاً طائفة منهن[٩]:

؟؟؟

؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

وكن يلبسن جوارب الحرير ويتحلين بعقود الأزهار من بنفسج وغير بنفسج، ويقول الجاحظ

---

١ البيان والتبييت ٣/ ١١٥

٢ أغاني ٦/ ٢٩٣ وانظر ٥/ ٣١٧.

٣ الجهشياري ص ١٤٩ والدواج: من الملابس التي يلتحف بها.

٤ طبري ٦/ ٤٣٥

٥ أغاني (طبع دار الكتب) ١٠/ ١٦٢.

٦ أغاني (طبعة الساسي) ١٦/ ١٣٢ وانظر في عقد آخر نفيس أهداه الواثق لفريدة الصغرى المغنية الأغاني (طبعة دار الكتب) ٤/ ١١٧.

٧ أغاني (ساسي) ١٨/ ١٨٧.

٨ وكان الرجال يتخذون هذه المشاط أيضاً. انظر كتاب البخلاء للجاحظ (طبعة دار الكاتب المصري) ص ٥٣

٩ ديوان أبي نواس (طبعة آصاف) ص ٨٣.

إن المرأة حين كانت تزوج ابنتها تحليها بالذهب والفضة وتكسوها المروزي والوشى والقز والخز وتعلق لها المعصفر وتدق الطيب حتى تعظم أمرها في عين زوجها وأهله[1]. ولعل امرأة لم تبلغ من التأنق ما بلغته زبيدة زوجة الرشيد وفيها يقول المسعودى إنها: "أول من اتخذ الآلة من الذهب والفضة المكللة بالجوهر وصنع لها الرفيع من الوشى حتى بلغ الثوب من الوشى الذي اتخذ لها خمسين ألف دينار.. وهى أول من اتخذ القباب من الفضة والآبنوس والصندل.. ملبسه بالوشى والسمور (الفراء) والديباج وأنواع الحرير.. واتخذت الخفاف (النعال) المرصعة بالجوهر، وشمع العنبر، وتشبه الناس بها"[2].

ولا ريب في أن هذا كله كان على حساب العامة المحرومة التي كانت تحيا حياة بؤس تقوم على شظف العيش لينعم الخلفاء والوزراء والولاة والقواد وكبار رجال الدولة وأمراء البيت العباسي الذين بلغوا هم وأبناؤهم نحو ثلاثية ألفاً لعهد المأمون[3]. وطبيعي أن يعم البؤس والشقاء من جانب، بينما يعم النعيم والترف من جانب آخر، بل لقد كان للشقاء والبؤس أكثر الجوانب في الحياة العباسية، فالجمهور يعيش في الضنك والضيف لا الرقيق منه فحسب الذي كان يعمل في القصور والضياع. بل أيضاً جمهور الناس من الأحرار، وكأنما كانوا جميعاً أرقاء في هذا النظام الذي كفلت فيه أسباب النعيم ووسائل الترف لأقلية محدودة استأثرت لنفسها بطيبات الأرض والرزق وزينة الحياة.

ولعل هذا البذخ وما صحبه من اعتصار الشعب هو السبب الحقيقي في كثرة الثورات على العباسيين وخاصة في إيران، مما عرضنا له في الفصل السابق، وأيضاً لعله السبب الحقيقي في تعلق الناس بالمهدى المنتظر من أبناء على الذي ينشر العدل الاجتماعي في الأرض، مما هيأ لكثرة الجمعيات السرية واعتناق الناس لعقيدة التشيع على اختلاف فرقها. غير أن المسألة لم توضع وضعاً سليماً صريحاً على أساس مشكلة العدالة الاجتماعية واستنزاف الشعب لمصلحة طبقة تعيش معيشة باذخة مسرفة في البذخ، بل وجهت توجيهاً خاطئاً، على أساس دعوات دينية مارقة كدعوة

---

١ البخلاء ص ٢٥. والمروزي نسبة إلى مرو. ويريد الجاحظ بالمصعفر الستور الحريرية التي كانت تعلق على الحيطان.

٢ المسعودي ٤/ ٢٤٤

٣ مقدمة ابن خلدون ص ١٢٣

الخرمية التي استوحت آراء المزدكية والمانوية، وحتى الشيعة وفرقهم أعلوا المقاصد الدينية على مقاصد العدالة الاجتماعية. وبذلك أخفقت هذه الثورات جميعاً، لأنها لم تضع للشعب اللافتات والشعارات الحقيقة التي يلتف حولها ويعمل من أجلها، ومضى العباسيون وحواشيهم يغرقون إلى آذانهم في البذخ والترف.

وقد هيأ هذا الترف لنشوء طبقة وسطى في بغداد ومدن العراق من التجار والصناع الذين كانوا يقومون على مطالب الترف وأدواته، أما التجار فكانت سفنهم وقوافلهم غادية رائحة في البحر والبر تجلب الطرف النفيسة من جميع أنحاء العالم، وأما الصناع فكانوا يتفننون في صوغ التحف الثمينة. وكان مركزهم جميعاً في الأسواق حيث تتجمع حوانيت كل طائفة منهم في سوق أو شارع. وكانت رءوس أموالهم تختلف قلة وكثرة وضيقاً وسعة، فمنهم من كان رأس ماله ثلاثة آلاف دينار[1] ومنهم من بلغ رأس ماله مائة وأربعين ألف دينار ومليونين وستمائة ألف من الدراهم[2]، ويقال إن ربح بعض التجار بلغ في صفقة واحدة مائة ألف دينار[3]. وكان أكثرهم ثراء البزازين والعطارين وتجار التحف النفيسة.

ومن أهم الجوانب التي يتضح فيها بذخ الطبقة المترفة مطاعمها ومشاربها، فقد طعموا وشربوا في أواني الذهب والفضة وصحاف الصيني المزخرفة والصحاف الزجاجية المنقوشة والمحفورة، وتفنن لهم لطهاة في ألوان الطعام والشراب، وكانوا يسمون باسم ما يعدونه منها من خباز وشواء وطباخ وخباص وهو الذي يصنع الحلوى وشرابي وهو صانع الشراب وألوانه. وفى كتاب البخلاء للجاحظ حشد كبير من الأطعمة والمشارب وهى في جمهورها فارسية، فمنها السباج وهو لحم يطبخ بخل مع شئ من الزعفران لتطيب رائحته، والطباهج وهو طعام من لحم وبيض وبصل، والشبارقات وهى شرائح مشوية من اللحم، ومنها الفانيذ وهو حلوى من الدقيق والسكر والسمن، والخشكنان وهو كعك يحشى بالجوز والسكر، والفالوذج وهو حلوى من النشا وعسل النحل والسمن، ومنها الجلاب وهو شراب من ماء الورد، وكانوا يتفننون تفنناً واسعاً في

---

١ البخلاء ص ١٠١

٢ البخلاء ص ٣٤.

٣ الجهشياري ص ١٨٥، ٣١٩.

إضافة الأفاويه إلى الأطعمة وصنع المشهيات والمخللات الحريفة وصنوف النقل من مثل مملوح البندق والجوز واللوز والفستق. وتكثر عندهم أسماء الفواكه، مثل التين والعنب والموز والكمثرى والخوخ والرمان والإجاص والسفرجل والتفاح، وكان البطيخ لديهم كثيراً حتى نسبوا إليه سوق الفاكهة، فسموها باسم سوق البطيخ ودار البطيخ.

ومما يدل على كثرة أفانين الطهاة في الأطعمة ما يروى من أن مائدة المأمون ضمت ذات يوم ثلاثمائة لون[1]، وقد انبهر الأصمعي لكثرة ما رآه على مائدة الفضل بن يحيى البرمكي من ألوان الطعام وما غسلوا به أيديهم بعد الأكل من ألوان الطيب والغالية والعنبر[2]. ويقال إن المأمون كان ينفق على طعامه يومياً ستة آلاف دينار بينما كان ينفق وزيره ابن أبي خالد على طعامه يومياً ألف درهم[3]، وهو نفس المبلغ الذي كان ينفقه إبراهيم الموصلي يومياً على طعامه وطيبه[4].

ومن تتمة هذا الترف في المطعم أن نراهم يتواضعون على طائفة من آداب المائدة اقتبسوا كثيراً منها عن الفرس[5]، فمن ذلك أن يضم الآكل شفتيه في أثناء المضغ وأن لا يستأثر بشيء من محاسن الطعام وأن لا يمسح فمه بكمه وأن لا يتناول إلا ما بين يديه وأن لا ينظر إلى ما بين يدي غيره وأن لا يطلب ما عسى أن لا يكون موجوداً.

وعلى نحو ما كان للمائدة آدابها كان لمجالس الخلفاء والوزراء وعلية القوم أيضاً آدابها، وهى تعرف بآداب المسامرة[6]، وكان لابد للنديم من إحسانها، حتى يخف على قلب منادمه، وكثير من هؤلاء الندماء استطاع أن يعتلى منصب الوزارة بما كان يحسنه من التبسط إلى الخليفة في الحديث في ساعات صفوه وغضبه، ومن لم يعتل منصب الوزارة سالت عليه الصلات السنية، ولذلك لا نعجب أن يصبح الحذق بالمنادمة وما تتطلب من كياسة مطمحاً لكثير من العلماء والأدباء ومن

---

١ ابن طيسفور ص ٣٦

٢ طبقات الشعراء لابن المعترض ص٢١٤.

٣ ابن طيفور ص ١٢٣

٤ أغاني (طبعة دار الكتب) ٥/ ١٦٤

٥ عيون الأخبار لابن قتيبة (طبعة دار الكتب) ٣/ ٢١٤

٦ المسعودي ٣/ ١٩٥ وما بعدها.

اللغويين والفقهاء وكل من يريد الحظوة عند خليفة أو وزير. وتلمع في هذا الجانب أسماء الأصمعي وأبي يوسف منادى الرشيد وثمامة بن أشرس نديم المأمون وكان النديم يورد في أحاديثه أخبار العامة ونوادرهم وبعض الحكايات القصيرة وبعض الطرف الأدبية. وكان بين هؤلاء الندماء مضحكون لا يزالون يوردون فكاهات مضحكة، ومن أشهرهم أبو دلامة الشاعر مضحك السفاح والمنصور والمهدى، وله فكاهات كثيرة تدور في كتب الأدب، ومنهم ابن أبي مريم مضحك الرشيد "وكان محدثاً فكهاً، فكان الرشيد لا يصبر عنه ولا يمل محادثته، وكان ممن جمع إلى ذلك المعرفة بأخبار أهل الحجاز وألقاب الأشراف ومكايد المجان"[1] ومنهم أبو الشمقمق وكان الناس يتهافتون على جمع نوادره[2].

وكانت هناك أدوات للترويح ولعب كثيرة، من ذلك سباق الخيل[3] وسباق الحمام الزاجل[4] ولعبة الصولجان وهو كرة تضرب من فوق ظهور الخيل، ومن ذلك المحاثة بين الديوك والكباش والكلاب، ولعب أبي نواس بالكلاب هو الذي أتاح له التفوق في وصفها بطردياته، ومن ذلك لعبة الشطرنج حتى ليشتهر شخص بإحسانها يسمى أبا حفص الشطرنجي، ولعبة النرد (الطاولة) ويقال إن واضعه أراد به تمثيل الحياة، فرقعته تقابل الأرض المبسوطة لسكانها، ومنازله الأربع تقابل الطبائع الأربع وخطوطها وهى أربعة وعشرون تقابل ساعات الليل والنهار وبيادقة (حجارته) الثلاثون تقابل عدد أيام الشهر واختلاف ألوانها بين البياض والسواد تقابل اختلاف الليل والنهار وفصاه (الزهر) يقابلان القضاء. ويظهر أنهم عرفوا لعبة خيال الظل، فقد هدد دعبل ابناً لأحد طباخي المأمون بأنه سيهجوه، فقال له: والله إن فعلت لأخرجن أمك في الخيال[5].

ومن أسباب اللهو التي فتن بها الخلفاء الصيد بالبزاة والشواهين والصقور والكلاب والفهود، والصيد قديم عند العرب والفرس جميعاً، ومن الملوك الذين اشتهروا به عند الأخيرين

---

١ طبري ٦/ ٥٣١

٢ الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبي) ١/ ٦١

٣ الجهشياري ص ٢٠٧ والمسعودي ٣/ ٢٧٩

٤ أغاني (طبع دار الكتب) ١٤/ ٣٤

٥ الديارات للشابشتي ص ١١٩

بهرام جور[1]، وأولع به المهدى، فكان يخرج إليه في مواكب كبيرة ومعه الحرس والوصفاء وبعض حاشيته، ويروى أن على بن سليمان العباسي خرج معه يوماً فعرض لهما ظبي سانح، فرماه هو والمهدى بسهمين، أما المهدى فأصابه وأما على بن سليمان فأصاب كلباً كان قد أرسل عليه وقتلاهما جميعاً، فقال أبو دلامة متندراً[2]:

قد رمى المهدى ظبياً	شك بالسهم فؤاده
وعلى بن سليما	ن رمى كلباً فصاده
فهنيئاً لهما كـ	ـل امرئ يأكل زاده

وشغف بالصيد كل من جاء بعد المهدى من الخلفاء[3]، وكان يشغف به الفضل بن يحيى البرمكي شغفاً شديداً[4].

وكان للعامة ملاهيهم وفى مقدمتها الفرجة على القرادين والحوائين، وكانوا يتجمعون حول قصاص يطرفونهم بحكايات خيالية، كما كانوا يتجمعون حول طائفة من الحكائين الذين كانوا يحكون في دقة لهجات سكان بغداد ونازليها من الأعراب والنبط والخراسانيين والزنوج والفرس والهنود والروم، ويصور الجاحظ عملهم، فيقول: "إنا نجد الحاكية من الناس يحكى ألفاظ سكان اليمن مع مخارج كلامهم لا يغادر من ذلك شيئاً وكذلك تكون حكايته للخرساني والأهوازي والزنجي والسندي والأحباش وغير ذلك، نعم حتى كأنه أطبع منهم، فإذا ما حكى كلام الفأ فاء فكأنما قد جمعت كل طرفة في كل فأفاء في الأرض في لسان واحد، وتجده يحكى الأعمى بصور ينشئها لوجهه وعينيه وأعضائه لا تكاد تجد من ألف أعمى واحداً يجمع ذلك كله، فكأنه قد جمع جميع طرف حركات العميان في أعمى واحد، ولقد كان أبو دبوبة الزنجي مولى آل زياد يقف بباب

---

١ الحيوان ١/ ١٤٠

٢ أغاني ٦/ ٢٤٠ والمسعودي ٣/ ٢٩٧ وابن الطقطقي ص ١٣١، ١٣٣.

٣ انظر المصايد والمطارد لكشاجم (طبع دار المعرفة ببغداد) ص ٣ وما بعدها والجهشياري ص ١٧٣ والطبري ٦/ ٤٩٤ والأغاني ٥/ ٣٤٤، ٤١٨، ٧/ ١٥٨

٤ المسعودي ٣/ ٢٨٤.

obeikandl.com

الكرخ بحضرة المكارين، فينهق، فلا يبقى حمار مريض ولا هرم حسير ولا متعب بهير إلا نهق، وقيل ذلك نسمع نهيق الحمار على الحقيقة فلا تنبعث لذلك، ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دبوبة فيحركها، وقد كان جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد،وكذلك كان في نباح الكلاب"[1].

obeikandl.com

١ البيان والتبيين ١/ ٦٩.

٢

الرقيق والجواري والغناء

كثر الرقيق في العصر العباسي كثرة مفرطة بسبب كثرة من كانوا يؤسرون في الحروب وبسبب انتشار تجارته ومعروف أن الإسلام يقصر الاسترقاق على أسرى الحروب من الأجانب، غير أن تجارة الرقيق كانت منتشرة في إيران وخراسان وما وراءهما وفى الدولة البيزنطية، وعظمت هذه التجارة في الإسلام على مر السنين، حتى كان في بغداد شارع خاص بها يسمى شارع الرقيق[١]، وكان يقوم عليه موظف يسمى قيم الرقيق.

وكان الرقيق حينئذ يجلب من بلاد الزنوج وإفريقية الشرقية ومن الهند وأواسط آسيا ومن بيزنطة وجنوبي أوربا وكان الزنوج يعملون في فلاحة الأرض غالباً، أما غيرهم فكانوا يقومون بالأعمال اليدوية والخدمة في المنازل والقصور. وقد دعا الإسلام دعوة واسعة إلى تحرير الرقيق فكان كثير منهم يحررون، وقد يصل بعضهم إلى أرفع المناصب في الدولة مثل الربيع بن يونس مولى المنصور وحاجبه ثم وزيره[٢]، وكان الرشيد يستكثر منهم حتى قيل إنه سار يوماً وبين يديه أربعمائة منهم[٣]، ومعروف شغف المعتصم بالرقيق التركي، ومازال يشتريهم من أيدي مواليهم ومن النخاسين حتى اجتمعوا به بالآلاف وحتى اضطر أن يبنى لهم - كما أسلفنا - سر من رأى كي يجنب العامة شرهم وأذاهم.

وكان يشيع بينهم الخصيان ونحن نعرف أن الإسلام يحرم خصاء الإنسان احتراماً لآدميته، ولكنه كان منتشراً في العالم القديم بين البيزنطيين[٤] وغيرهم، وما نصل إلى العصر العباسي حتى نجد القصور في بغداد وغيرها من بلدان العالم الإسلامي تكتظ بهم، ومن المؤكد أن المسلمين لم

---

١ المسعودي ٣/ ٣١٦

٢ انظر الجهشياري ص ١٢٥ وابن الطقطقي ص ١٢٩

٣ أغاني (طبعة دار الكتب) ٥/ ٢١٨

٤ انظر الحضارة البيزنطية لرنسيمان (نشر مكتبة النهضة المصرية) ص ٢٤٣.

obeikandl.com

يكونوا هم الذين يقومون بهذا العمل البغيض من الحضارة، إنما كان يقوم بذلك اليهود والنصارى ومتحملين وزره وإثمه. وقد اشتهر الأمين بكلفه بهم كلفاً شديداً حتى تندر عليه معاصروه[1].

وكان رقيق النساء من الجواري أكثر عدداً من رقيق الرجال فقد ذخرت بهن الدور والقصور، إذ أحل الإسلام للشخص أن يتملك من الإماء والجواري ما شاء، وبينما قيد حريته إزاء الحرائر فحرم عليه أن يتزوج منهن بأكثر من أربع أطلق حريته إزاء الجواري فلم يقيده بعدد منهن، وإن كان قد حرم عليه بيع من يستولدها ورد إليها حريتها بعد وفاته وجعل أولاده منها أحراراً منذ ولادتهم. وكان الرجال بعامة يفضلونهن على الحرائر، لأنهن كن من أجناس مختلفة، فمنهن السنديات والفارسيات والحبشيات والخراسانيات والأرمنيات والتركيات والروميات، وأيضاً ربما كان للحجاب دخل في ذلك، فقد كانوا لا يرون من يريدون الاقتران بهن من الحرائر، أما الجواري فكن معروضات بدور النخاسة تحت أعينهم، فكانوا يختارونهن حسب مشيئتهم وهواهم، وصور ذلك الجاحظ فقال: "قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المهيرات أن الرجل قبل أن يملك الأمة قد تأمل كل شئ منها وعرفه ما خلال حظوة الخلوة، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة، والحرة إنما يستشار في جمالها النساء، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن لا قليلاً ولا كثيراً، والرجال بالنساء أبصر، وإنما تعرف المرأة ظاهر الصفة، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك. وقد تحسن المرأة أن تقول كأن أنفها السيف وكأن عينها عين غزال وكأن عنقها إبريق فضة وكأن ساقها جمارة وكأن شعرها العناقيد وكأن أطرافها المدارى وما أشبه ذلك، وهناك أسباب أخر بها يكون الحب والبغض"[2].

وكانت هؤلاء الجواري والإماء من أجناس وثقافات وديانات وحضارات مختلفة، فأثرن آثاراً واسعة في أبنائهن ومحيطهن، وهى آثار امتدت إلى قصر الخلافة وعملت فيه عملاً بعيد الغور، فقد كان أكثر الخلفاء من أبنائهن، فالمنصور أمه حبشية والهادي والرشيد أمهما الخيزران رومية والمأمون أمه مراجل فارسية وكذلك أم المعتصم ماردة، وكانت أم الواثق رومية وتسمى قراطيس. وقد

---

١ طبري ٧/ ١٠١، ١١٠.

٢ رسائل الجاحظ (طبعة السندوني) ص ٢٧٤.

أخذ هؤلاء الجواري يكثرن في القصر منذ المهدي وكان بينهن من يعلقن الصلبان ويقال إنه اشترى جاريته مكنونة بمائة ألف درهم[1]. وقد استكثر الرشيد وزوجه زبيدة من الجواري والإماء حتى قيل إنه كان كل منهما زهاء ألفى جارية في أحسن زي من الثياب والجوهر[2]، وكانت سحر وضياء وخنث من بينهن يشغفن قلبه، وفيهن يقول، وقيل: بل نظم ذلك العباس بن الأحنف على لسانه[3]:

ملك الثلاث الآنسات عناني	وحللن من قلبي بكل مكان
مالي تطاوعني البرية كلها	وأطيعهن وهن في عصياني
ما ذاك إلا أن سلطان الهوى	– وبه عززن – أعز من سلطاني

وكان قصر الأمين يزخر بالجواري الغلاميات اللائى يلبسن لبس الغلمان[4]، وزخر قصر المأمون بالجواري المسيحيات[5]، كما زخر بهن وبغيرهن قصر المعتصم والواثق[6].

وكانت قصور الوزراء والأمراء تمتلئ بهن، حتى ليروى أنه كان لعتابة زوج يحيى بن خالد البرمكي مائة وصيفة، لبوس كل واحدة منهن وحليها خلاف لبوس الأخرى وحليها[7]. ويفيض كتاب الأغاني بأخبارهن في دور علية القوم وفى دور النخاسة والقيان ويصور كيف كان يغشى الدور الأخيرة الشعراء، والجواري يستصبين قلوبهم وكثيراً ما يقع حب جارية في قلب شاعر ويصبح محنة لا يجد إلى التخلص منها سبيلاً، وكان من الشعراء من يقاوم إغراءهن، ولكنه يغاديهن صباح مساء مفتوناً بهن. وعلى هذا النحو كانت دور النخاسة والقيان معارض للجمال، وهى معارض مفتوحة ليلاً ونهاراً يجتمع فيها الفتيان من الشعراء وغير الشعراء يتملون بالجمال

---

١ أغاني (طبعة دار الكتب) ١٠/ ١٦٢

٢ أغاني ١٠/ ١٧٢ وانظر طبعة الساسي ١٦/ ١٣٢.

٣ أغاني (طبعة دار الكتب) ١٦/ ٣٤٥.

٤ المسعودي ٤/ ٢٤٤.

٥ أغاني (ساسي) ١٩/ ١٣٨.

٦ أغاني (دار الكتب) ٥/ ٢٨٨، ٧/ ٩٨، ١٢/ ٥١، ١٦/ ١٢.

٧ الجهشياري ص ٢٤١ والمسعودي ٣/ ٢٩٧

ومفاتنه، وفى ذلك يقول أبو دلامة[1]:

إن كنت تبغي العيش حلوً صافياً فالشعر أعزبه وكن نخاساً

تنل الطوائف من ظراف نهد يحدثن كل عشية أعراسا

وهى أعراس ظلت قائمة طوال العصر، وظل الشعراء يختلفون إليها، وكن أحياناً يزرنهم في دورهم ويبتن عندهم، وقد يشترى الجارية الخليفة أو وزير أو أمير أو قائد مشهور أو أحد العلية من أبناء البيوتات فيظل الشاعر متعلقاً بها وتظل تملك عليه كل شئ من أمره على نحو ما كانت تمثلك عتبة إحدى جواري قصر المهدى قلب أبي العتاهية وجنان جارية الثقفيين قلب أبي نواس وفوز جارية محمد بن المنصور فتى العسكر قلب العباس بن الأحنف.

وكانت كثيرات منهن يقفن بفنون الآداب، فكن يجمعن إلى جمالهن عذوبة الحديث، فيملأن على الشعراء وغيرهم قلوبهم وعقولهم، بل كان منهن من يتقن نظم الشعر مثل عنان جارية الناطفي وسكن جارية محمود الوراق وقد عرض عليه بعض الطاهريين أن يشتريها منه بمائتي ألف درهم فأبى التفريط فيها[2] لما كانت تسعر به قلبه من الحب المضطرم. وكان منهن من يضفن إلى ذلك إجادة الغناء فكن فتنة من فتن العصر على نحو ما كانت دنانير جارية البرامكة ومتيم جارية على بن هشام أحد قواد المأمون وعريب جارية الأمين والمأمون.

وكان للغناء في الناس لهذا العصر أثر أي أثر، فقد شغلوا به أي شغل، وكأنه نعيمهم من دنياهم الذي لا يؤثرون سواه لما يبعث في نفوسهم من غبطة وابتهاج، ومعروف أنه انتقل من الحجاز إلى العراق لأواخر عصر بنى أمية، إذ نرى ابن رامين الكوفي يستقدم مغنيات الحجاز[3]، ويقيم داراً واسعة يقصده الناس. وما تنشأ بغداد ويطل عصر المهدى حتى تصبح داراً كبيرة للغناء، فقد جذبت إليها المغنين والمغنيات من كل فج، ونثرت الأموال عليهم نثراً، بل كالتها كيلاً. وأول من كالها من الخلفاء المهدى، واقتدى به الهادي، وخلفهما الرشيد فجعل المغنين مراتب

---

١ أغاني ١٠/ ٢٥٠.

٢ طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٤٢٢.

٣ انظر أغاني (دار الكتب) ١١/ ٣٦٤

وطبقات على نحو ما جعلهم أردشير[1] بن بابك، وهو الذي طلب إلى إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع وفليح بن أبي العوراء أن يختاروا له الّوات المائة التي أدار أبو الفرج الأصبهاني - فيما بعد - كتابه الأغاني عليها. وكان الأمين يعيش للسماع والقصف، ويقال إنه اشترى بذلاً المغنية بعشرين ألف ألف درهم[2]. وكانت في المأمون وقار فامتنع عن السماع بعد قدومه من خراسان أربع سنوات، ثم أقبل عليه فملأ مجالسه بإسحق الموصلي ومخارق، ويقال إنه اشترى عريب المغنية المحسنة الشاعرة بمائة ألف درهم، واشتراها المعتصم بنفس الثمن بعد وفاته[3]، وكان الواثق أشد كلفاً بالغناء لإحسانه الضرب على آلاته، وله فيه أصوات سجلها صاحب الأغاني، ويقال إنه اشتريت له قلم الصالحية المغنية بعشرة آلاف دينار[4].

ومن أبرز المغنين حينئذ إبراهيم الموصلي، ويقال إنه خلف تسعمائة صوت صنعها ابتداء[5]، وكان يغنى الرشيد على ضرب زلزل وزمر برصوما[6]، وفى ذلك ما يدل على أنهم عرفوا غناء الجوقات. ومنهم ابن جامع مغنى الرشيد وكان يقال إنه زق عسل حلو، وطرب الهادي لصوت غناه فأعطاه ثلاثين ألف دينار[7]. ومنهم مخارق وكان الناس يبكون لجمال غنائه ورقته، وسمعه أبو العتاهية فقال له: يا دواء المجانين لقد رققت حتى كدت أن أحسوك، فلو كان الغناء طعاماً لكان غناؤك أدماً، ولو كان شراباً لكان ماء الحياة[8]، ومنهم علوية، وكان يقول فيه الواثق: غناء علوية مثل نقر الطست يبقى في السمع ساعة بعد سكوته[9].

وأنبه المغنين في العصر إسحق الموصلي، وقد تلقى الغناء عن إبراهيم أبيه والضرب على العود

---

١ كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ ص ٣٧.

٢ أغاني (طبعة الساسي) ١٥/ ١٣٨.

٣ أغاني ١٨/ ١٨٢.

٤ أغاني (دار الكتب) ١٣/ ٣٥٠.

٥ أغاني ٥/ ١٨٧.

٦ أغاني ٥/ ٢٤١

٧ أغاني ٦/ ٣٠٣

٨ أغاني (ساسي) ٢١/ ١٤٧

٩ أغاني (دار الكتب) ١١/ ٣٣٧.

وعلى زلزل، وفى ترجمته بالأغاني أنه أعطاه على تعليمها له مائة ألف درهم. وكانت صنعته محكمة الصول، وكان يتصرف في جميع بسط الإيقاعات. ويظهر أنه استطاع أن ينتقل بالغناء من حد التطريب إلى حد التعبير، بل لعل ذلك كان شأواً ارتفع إليه المغنون في عصره، فقد روى صاحب الأغاني أن مغنياً تغنى في مجلس الواثق بصوت له، فنظر إليه مخارق نظراً شزراً حتى إذا خلا به قال له: "ويحك أتدرى أي صوت غنيت؟ إن إسحق جعل صيحة هذا الصوت بمنزلة طريق ضيق وعر صعب المرتقى، أحد جانبي ذلك الطريق حرف الجبل،وعن جانبه الآخر الوادي، فإن مال مرتقيه عن محجته إلى جانب الوادي هوى، وإن مال إلى الجانب الآخر نطحه حرف الجبل فتكسر"[1]، ولعله بفضل ما كانت تحمل أصوات الغناء من صور التعبير كانت تعلم وتباع بأغلى الأثمان حتى لقد بيع صوت بمائة ألف دينار[2]، وكان سراه بغداد يتهادونها كما يتهادن التحف الثمينة[3].

وبلغ من رقى هذا الفن وارتفاع شأنه في النفوس أن أقبل أبناء الخلفاء وعلية القوم على تعلمه وإتقانه حتى لنراهم يصنعون فيه ألحاناً وأصواتاً تنسب إليهم، على نحو ما رِنا إلى ذلك آنفاً عند الواثق، وقد فتح أبو الفرج في أغانيه فصلاً بل فصول طويلة[4] لأبناء الخلفاء وما أثر عنهم من أصوات، وأشهرهم في هذا الباب إبراهيم ابن المهدى وأخته علية وكان إبراهيم يعد في كبار المغنيين المحسنين، وله أصوات[5] كثيرة، وكانت علية مثله تجيد الغناء وقد خلفت فيه ثلاثة وسبعين صوتاً[6]. وممن برع في الغناء وأثرت عنه أصوات بديعة فيه عبد الله[7]، بنت طاهر، وأبو دلف[8] العجلي قائد المأمون المشهور.

---

١ أغاني ٥/ ٣٠٥

٢ أغاني (دار الكتب) ٧/ ٣٠٠

٣ أغاني ٥/ ٣٨٤.

٤ أغاني ١٠/ ٩٥، ١٦٢ وفى مواضع متفرقة.

٥ انظر ترجمته في الأغاني ١٠/ ٩٥

٦ أغاني ١٠/ ١٧٤

٧ أغاني ١٢/ ١٠٦.

٨ أغاني ٨/ ٢٤٨.

وقد جعل هذا الغناء الذي ملأ حياة الناس واستأثر بقلوبهم يرفع من أثمان الجواري المسمين بالقيان اللائي كن يتقنه ويدلعن ناره في القلوب ونسيمه الحلو الصافي، وقد مر بنا ما بيعت به عريب مراراً وما بيعت به بذل وقلم الصالحية، ويقال إن صالح بن على عم المنصور اشترى سعدة بتسعين ألف درهم واشترى ابن أخيه جعفر بن سليمان ربيحة بمائة ألف و.لزرقاء بمائة ألف ثانية[1]، والثلاث من جواري ابن رامين اللائى استقدمهن من الحجاز، واشترى المهدى سراً من أبيه المنصور بصيص جارية ابن نفيس بسبعة عشر ألف دينار[2]، واشترى الرشيد ذات الخال بسبعين ألف درهم[3]، بينما اشترى على بن هشام أحد قواد المأمون متيم الهاشمية بعشرين ألف درهم[4].

وكانت هذه الأثمان الباهظة التي تدفع في شراء الجواري اللاتي يحسن الغناء سبباً في أن يعنى المقينين بتعليمهن هذا الفن حتى يصيبوا من ورائهن الأرباح الطائلة، وجاراهم في ذلك بعض المغنين الحاذقين من أمثال إبراهيم الموصلي، حتى يقال إنه كان عنده ثمانون جارية يعلمهن فن الغناء[5]. وكان ابنه إسحق على شاكلته يعلم الجواري والغلمان جميعاً، ويقال إنه علم غلامين – لبعض أمراء البيت العباسي – الغناء نظير مائة ألف فدرهم[6]. ولم يكن هو وأبوه وحدهما يحترفان هذا التعليم والتثقيف، فقد شركهما فيه كبار المغنين لعصرهما من مثل ابن جامع ويزيد بن حوراء وبعض الجواري المحسنات للغناء، وهذا هو سر ما نجده عند صاحب الأغاني من نصه دائماً على أساتذة المغنى المتقن والقينة المحسنة وتلامذتهما.

ويخيل إلى الإنسان أنه لم يبق في بغداد ولا في الكوفة ولا في البصرة سرى إلا عمل على أن يقتني قينة أو قياناً يشعن المرح في داره. وكان من لا يستطيع اقتناء قينة يمكنه أن يستأجر من

---

١ أغاني ١٥/ ٦٢ وما بعدها.

٢ أغاني ١٥/ ٢٧

٣ أغاني ١٦/ ٣٤٢

٤ أغاني ٧/ ٢٩٣.

٥ أغاني ٥/ ١٦٤ وانظر ٣/ ٢٥١ حيث اشترك مع يزيد بن حوراء في تعليم طائفة من الجواري فن الغناء.

٦ أغاني ٥/ ٢٩٣.

المقينين إحدى قيانهم لتغنيه ليلة أو ليالي متصلة، فالرواة يذكرون أنه كان لأبى النضير عمر بن عبد الملك جوار يغنين ويخرجن إلى أهل البصرة[١]، وكانت قيان بربر في الكوفة ما يزلن يختلفن إلى مطيع بن إياس ورفقته[٢]، وبالمثل كانت قيام بغداد يكثرن من الاختلاف إلى دور الشعراء، وكان الشعراء وغيرهم من فتيان بغداد يزورونهن في دور أصحابهن من المقينين، وكانت أشبه بنواد كبيرة للغناء والموسيقى، فالناس يذهبون إليها شعراء وغير شعراء للمتعة بالسماع ورؤية الجمال من كل شكل وعلى كل لون، وكثيراً ما كان يقع الشعراء في حب بعض الجواري المكتملات الخلق الجميلات الجسد، فيستأثرن بكل ما قيهم من عاطفة وهوى على نحو استئثار بم يقلب مطيع[٣] بن إياس، وعبادة بقلب عبد الله[٤] بن محمد البواب وعنان بقلب أبي النضير[٥]، وسلسل بقلب أبان[٦] بن عبد الحميد، وكن يتبارين في جذب الشعراء بما يشعن في أحاديثهن من عذوبة حلوة وبما يحسن من صنوف الغزل والعبث بقلوب الرجال.

وكثيرات من هؤلاء القيان والجواري كن يحسن الرقص، ويظهر أنه بلغ حينئذ حظاً واسعاً من الرقى على نحو ما يصور لنا ذلك المسعودى بما ضبط من إيقاعاته على الغناء ورسم من صفاته[٧]، ويذكر ابن خلدون أنه كان للرقص عندهم آلات خاصة في الملبس وما يستخدمن من قضبان مع ما يترنمن به من أشعار، ويقول إنه كان عندهم ضرب آخر من الرقص يتخذن فيه آلات تسمى الكرج وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية، يلبسها النساء ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكررن ويفررن كأنهن في حرب[٨]، وفى كتاب الأغاني أن الأمين كان يرتكض في الكرج بصحن قصره، بينما الوصائف من حوله يغنين على الطبول والسرنايات

---

١ أغاني (طبع الساسي) ٢٠/ ٧٤.

٢ أغاني (طبع دار الكتب) ١٣/ ٣١١، ٣٢٢.

٣ أغاني ١٣/ ٣٠٠.

٤ أغاني (ساسي) ٢٠/ ٤٤.

٥ أغاني (طبع دار الكتب) ١١/ ٢٨٦.

٦ أغاني ١٠/ ٤٨.

٧ المسعودي ٤/ ١٦١

٨ مقدمة ابن خلدون (طبعة المطبعة البهية) ص ٣٠٠.

والمخنثون يزمرون ويطربون[1].

وقد أشاع هؤلاء الجواري والقيام في المجتمع كثيراً من ضروب الرقة والظرف، فقد جعلت كثرة معاشرتهن الرجال لهن يتعودون كيف يتلطفون لقلوبهن، وكيف يستنزلونهن بالكلام الرقيق إلى ودهم، وكيف يحيطونهن بأشراك الحديث الساحر الذي يشغف قلوبهن ويملؤها بالعطف والحنان، وكان لذلك أثره البالغ في الشعر والشعراء، فقد شاعت في كثير من معانيهم الرقة المفرطة والإشارة الدالة واللمحة المعبرة.

واقترنت بهذا الظرف مظاهر كثيرة في الأزياء وفى العطور وآداب الطعام والسمر، ومن أهم مظاهره تهادى القوم بالأزهار والرياحين رامزين بأسمائها وأشكالها إلى معاني المودة والمحبة[2]، وكان الجواري والقيان يكلفن بالورود كلفاً شديداً، ويروى أن متيم الهامشية جارية على بن هشام ومغنيته كان يعجبها البنفسج جداً فكانت لا تخلى منه كمها[3]. وكان بهذا الإعجاب والكلف أثره في العناية بالأزهار والرياحين وتغنى الشعراء بها غناء كثيراً[4].

وكان الجواري يهدين التفاح كثيراً إلى من يكلفون بهن أو يتعلقن هن بهم، وكن يضعن عليه أثر أخذه بأفواههن، وقد يفلجنه ويشققنه بالمسك وغيره من أنواع الطيب، وقد يكتبن عليه بعض أبيات رقيقة، تصور صبابتهن، وفى أخبار المهدى أن جارية من جواريه أهدت إليه تفاحة وطيبتها وكتبت عليه[5]:

هدية منى إلى المهدى　　تفاحة تقطف من خدي

محمرة مصفرة طيبت　　كأنها من جنة الخلد

واستغللن أبيات الحب والعشق كثيراً لا في أحاديثهن فحسب، بل في كل ما يتصل بهن، فكن

---

١ أغاني (طبعة الساسي) ١٦/ ١٣٣.

٢ أغاني ٧/ ١٧٠

٣ أغاني ٧/ ٣٠٦

٤ انظر على سبيل المثال وصف إبراهيم ابن المهدى للنرجس في الأغاني ١٠/ ١١٥

٥ العقد الفريد (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ٦/ ٤٠٦.

obeikandl.com

يكتبنها على المناديل الحريرية التي يرسلن بها تذكاراً إلى عاشقيهن، وقد يكتبنها على عصائبهن وذوائبهن وثيابهن وأكمامهن وفرشهن وما يمسكن به من مراوح، ويروى بعض الأشخاص أنه دخل على هرون فرأى الوصائف من ورائه وقد تزين بعصابات نظمت فيها الدرر واليواقيت وكتبت عليها أبيات في صفائح الذهب، مثل قول بعض الشعراء[1]:

مالي رميت فلم تصبك سهامي ورميتني فأصبتني يا رامي

وقول آخر على لسان إحدى الجواري:

أفلت من حور الجنان وخلقت فتنة من يراني

ويذكر إسحق الموصلي أنه دخل على الأمين يوماً فوجد من حوله وصائف يختلن في حسنهن، وبأيديهن مراوح نقشت عليها أبيات غزل مختلفة، منها هذا البيت[2]:

أتهوون الحياة بلا جنون فكفوا عن ملاحظة العيون

وكن يتبارين في التهادي بالتحف النفيسة، من ذلك ما يروى عن مؤنسة جارية المأمون من أنها أهدت إلى متيم الهامشية جارية على بن هشام في يوم احتجمت فيه مخنقة (قلادة) في وسطها حبسة – لها قيمة جليلة – كبيرة وعن يمين الحبة ويسارها أربع يواقيت وأرعب زمردات وما بينها من شذور الذهب، وغمستها في الغالية[3].

وعلى هذا النحو كانت الجواري والقيام في هذا العصر من العوامل الفعالة في انتشار الظرف والرقة في المجتمع العباسي حتى أصبحا سمتين بارزتين فيه، وبذلك رقت المشاعر والأحاسيس ودقت الأذواق وأرهفت إرهافاً شديداً.

---

١ العقد الفريد ٦/ ٤٢٤

٢ العقد الفريد ٦/ ٤٢٤.

٣ أغاني ٧/ ٣٠٦.

obeikandl.com

٣

المجون

ورث المجتمع العباسي كل ما كان في المجتمع الساساني الفارسي من أدوات لهو ومجون، وساعد على ذلك ما دفعت إليه الثورة العباسية من حرية مسرفة، فإذا الفرس المنتصرون يمعنون في مجونهم ويمعن معهم الناس، فقد مضوا يعبون الخمر عباً ويحتسون كئوسها حتى الثمالة، وحاكاهم من عايشوهم حتى أبح الإدمان عليها ظاهرة عامة على الرغم من نهى القرآن الكريم عنها وحضه على اجتنابها إذ يقول عز شأنه: (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون). وكان من أسباب انتشارها وإقبال الناس عليها إن أدى اجتهاد بعض فقهاء العراق إلى تحليل بعض الأنبذة كنبيذ التمر والزبيب المطبوخ أدنى طبخ ونبيذ العسل والبر والتين[١]. فشرب الخلفاء هذه الأنبذة وشربها الناس، وتهالك بعض الناس – إمعاناً في المجون – على أنواعها المحرمة بإجماع الفقهاء.

والمعروف أن الهادي أول خليفة عباسي أغرى بالخمر[٢]، وتبعه الرشيد[٣] ومن جاءوا بعده، وأغلب الظن أنهم لم يكونوا يتجاوزون الأنواع المحللة إلى الأنواع المحرمة إلا ما كان من الأمين الذي كان يعيش للخمر المسكرة يشربها أرطالاً[٤]، وكأنما كان في قلبه جذوة من الغرام بها لا سبيل إلى إطفائها إلا بشرابها متتابعاً، حتى ليصل أحياناً مساءه فغيها بصباحه، حدث ابن المعتز أنه اصطبح بها يومه مع أبي نواس وطائفة من ندمائه: "فأتى بالشراب كأنه الزعفران، أصفى من

---

١ ضحى الإسلام لأحمد أمين ١/ ١١٩.

٢ الجهشياري ص ١٤٤ والطبري ٦/ ٤٣٠، ٤٣٥ وقارن بالأغاني ٥/ ١٦٠ والطبري ٦/ ٣٢٩.

٣ طبري ٦/ ٤٨٩ وأغاني ٥/ ٢١٦، ٢٢٤، ٢٩٩ وطبري ٧/ ٢١٥ وأغاني ٥/ ٣٢٩، ٣٤٢، ٣٥٥.

٤ الجهشياري ص ٢٩٩ والمسعودي ٣/ ٣٠٥.

وصال المعشوق وأطيب ريحاً من نسيم المحبوب، وقام سقاه كالبدور بكئوس كالنجوم فطافوا عليهم، وضربت المغنيات خلف الستائر بمزاهرها. فشربوا معه من صدر نهارهم إلى آخره في مذاكرة (أحاديث) كقطع الرياض، ونشيد كالدر المفصل بالعقبان، وسماع يحيى النفوس ويزيد في الأعمال. فلما كان آخر النهار دعا بعشرة آلاف دينار في صواني فأمر فنثرت عليهم فانتهبوها والشراب – بعد – يدور عليهم بالكبير والصغير من الصرف والممزوج" حتى إذا نام واستيقظ في السحر طلب إلى أبي نواس أن ينشطه إلى متابعة السكر ببعض الأبيات، فأنشده:

نبه نديمك قد نعس	يسقيك كأساً في الغلس
صرفاً كأن شعاعها	في كف شاربها قبس
تذر الفتى وكأنما	بلسانه منها خرس
يدعى فيرفع رأسه	فإذا استقل به نكس

فهش الأمين ونشط ودعا بالشراب يصطبح به لليوم التالي وينعم بنشوته[1]، غير مفكر في وقار خلافة ولا في دين، فقد احتلت قلبه وبسطت سلطانها عليه فأحبها وهام بها هياماً.

والأمين في خمره ومجونه ليس شذوذاً في عصره بل هو امتداد لموجة حادة بدأها الوليد بن يزيد في دمشق لآخر عصر بنى أمية ثم مطيع بن إياس ورفقاءه من أمثال والبة بن الحباب في الكوفة وبشار وأضرابه المجان في البصرة. ومن الحق لو أن العصر العباسي لم يقبل ويقبل معه الخراسانيون من الشرق لما اتسعت تلك الموجة ولانحصرت في حيز ضيق، فقد أحس الفرس أن الحياة واتتهم وأخذوا يعبون كئوس الخمر مترعة، وتهالك الشعراء عليها من حولهم حتى أصبحت من أهم الموضوعات الجديدة في الشعر العباسي، واشتهر فيها غير شاعر بخمرياته، على نحو ما هو معروف عن أبي نواس. ومن يقرأ في الأغاني لأبي الفرج يخيل إليه أن الناس جميعاً شرفاء ومشروفين قد تورطوا في إثمها تورطاً، وكان منهم من يسرف في شربها إسرافاً شديداً حتى ليتناول منها عشرة[2] أرطال دفعة واحدة. ويؤثر عنهم أنهم كانوا يكرهون أن يدور الشراب بين

---

١ طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢١٠.

٢ الحيوان ٢/ ٢٢٦ والأغاني ٥/ ٢٢٥

اثنين، لأن أحدهما قد ينهض لحاجة فيبقى صاحبه واجماً، ومن أجل ذلك استحبوا أن يدور الشراب بين ثلاثة أو أربعة أو خمسة، بحيث لا يزيدون عن ذلك، حتى لا يستحيل الشراب إلى لون من ألوان الشغب، وفى ذلك يقول أبو نواس[1]:

ثلاثة في مجلس طيب وصاحب الدعوة والضارب

فإن تجاوزت إلى سادس أتاك منهم شغب شاغب

وقد تفنن الشعراء في وصف نشوتها وآثارها في الجسد والعقل ووصف دنانها وكئوسها ومجالسها وندمائها وسقاتها وكانوا عادة من النصارى والمجوس واليهود، وكانوا يزينون رءوسهم بأكاليل الزهر كمنا يزينون قاعة الشراب بالرياحين، وفى ذلك يقول أبو نواس خمريته[2] التي كان يعجب بها الجاحظ إعجاباً شديداً:

ودار ندامى عطلوها وأدلجوا بها أثر منهم جديد ودارس[3]

مساحب من جر الزقاق على الثرى وأضغاث ريحان جنى ويابس[4]

حبست بها صحبى فجددت عهدهم وإني على أمثال تلك لحابس

أقمنا بها يوماً ويوماً وثالثاً ويوماً له يوم الترحل خامس

تدار علينا الراح في عسجدية حبتها بألوان التصاوير فارس[5]

قرارتها كسرى وفى جنباتها مهى تدريها بالقسي الفوارس[6]

فللخمر ما زرت عليه جيوبها وللماء ما دارت عليه القلانس[7]

---

١ ديوان أبي نواس (طبعة آصاف) ص ٣٥٦ وانظر ٣٥٨

٢ ابن المعتز ص ٢٠٦

٣ أدلجوا: ساروا الليل كله وآخره دارس: ممحو

٤ الزقاق: دنان الخمر. أضغاث: أخلاط.

٥ عسجدية: كأس ذهبية.

٦ المها: البقر الوحشي تدريها: تدفعها.

٧ الجيوب: أطواق الثياب.

obeikandl.com

وهى خمرية تقطر حنيناً وحباً للخمر، فقد بث في مطلعها لوعة عشاق الغرب إزاء الرسوم الدائرة لوعة تجعلهم يحبسون مطيهم عندها وفاء لحق حبهم فيها، حتى إذا استتم هذه الصورة مضى يعلن صبابته بتلك الدار وكيف حبس بها صحبه أياماً يتداولون كئوس الخمر التي كانت تشيع فيهم البهجة والفرحة بشكلها المادي وما ارتسم عليها من صور فارسية بديعة وبما تسكب في بطونهم من رحيق الخمر ومتاعها المتصل.

ومنذ أول العصر نجد الخمر تقترن بالغناء والرقص، إذ تحول المقينون في كرخ بغداد وفى البصرة والكوفة بدورهم إلى حانات كبيرة للشرب والقصف كل مساء، فكان الشعراء وغيرهم يؤمونها للشراب على غناء القيان وضرب الطبول والدفوف، ومن أشهر تلك الدور دار ابن رامين المقين في الكوفة، فقد جلب إليها طائفة من قيان الحجاز، كان يختلف إليهن للشراب والسماع مطيع بن إياس وصحبه من الشعراء وابن المقفع ومعن بن زائدة الشيباني وروح بن حاتم الباهلي[1]. وعلى شاكلتها دار إسماعيل القراطيسي المقين في بغداد، وكانت مألفاً لأبى نواس والحسين بن الضحاك وأبي العتاهية وغيرهم من الشعراء[2].

وكانت البساتين في ضواحي بغداد تمتلئ بالحانات التي يختلف إليها الشعراء وغيرهم من الفتيان كحانة بستان صباح التي وصفها مطيع بن إياس في بعض شعره[3]، ويروى الصولي أن أبان بن عبد الحميد أظهر من التهالك على الشراب والمجون ما جعل أباه ينصحه أن يخرج إلى بعض البساتين لعله يسلو الخمر، وغاب فيها طويلاً، فكتب إليه أبوه يتشوقه، وما كان اشد عجبه حين أجابه بقوله[4]:

يا أبي لا ترث لي من غيبتي ... أنا في خير ولهو ودعة

ومعي في كل يوم مسمع ... حاذق يطربني أو مسمعه

---

١ أغاني (طبع دار الكتب) ١١/ ٣٦٤، ١٥/ ٦٧.

٢ أغاني (ساسي) ٢٠/ ٨٩.

٣ أغاني (دار الكتب) ١٣/ ٣٢١ وانظر كتاب الورقة (طبع دار المعارف) ص ٣٧.

٤ الأوراق للصولي، أخبار الشعراء ص ٢٦.

obeikandl.com

وندامى كمصابيح الدجى كلهم يأخذ كأساً مترعة

لا يبالي من لحا في شربها أبداً حتى يوارى مصرعه

فالبساتين أو على الأقل طائفة منها تحولت إلى حانات كبيرة للخمر والقصف والمتعة بسماع بعض المغنين والقيان.

وكانت الأديرة تقدم لروادها الخمر المعتقة وقد استحالت قاعات شرابها إلى مجتمعات لطلاب الخمر والمجون من الشعراء وغيرهم، وكانت متناثرة في ضواحي بغداد وغيرها من مدن العراق، ونرى الشعراء الماجنين يذكرون خمرها ونشوتها ورهبانها وراهباتها من مثل قول أبي نواس[1]:

يا دير حنة من ذات الأكيراح من يصح عنك فإني لست بالصاحي

رأيت فيك ظباء لا قرون لها يلعبن منا بألباب وأرواح

بل لقد كثرت أشعارهم فيها كثرة مفرطة دفعت كثيرين إلى تخصيص مؤلفات لها على نحو ما هو معروف عن كتاب الديارات للشابشتي، وفيه نراها تتحول في العراق إلى دور واسعة للهو والعبث.

وكثير من دور الشعراء أنفسهم في بغداد وغير بغداد تحولوا بها إلى مقاصف للخمر والمجون على نحو ما كانت دور مطيع بن إياس ورفقائه في الكوفة ودار بشار في البصرة ودار أبي نواس في بغداد. وكانت هناك أيام على مدار السنة يخرجون فيها للهو والقصف والعبث والمجون، وهى أيام الأعياد، أعياد الإسلام وأعياد الفرس والنصارى وكانت تأخذ شكل كرنفالات عظيمة، يخرج فيها الناس للشراب واللهو المباح وغير المباح والفرجة على أصحاب المساخر، وكان منهم من يتهادون على صفحة دجلة في القوارب الجميلة ومنهم من يبعد في البساتين، أما أعياد الإسلام فهي عيد الفطر وعيد الأضحى، وأما أعياد الفرس فكانت كثيرة، مثل عيد

١ الديارات النصرانية في الإسلام لحبيب زيات (طبع بيروت) ص ٢٢. وذات الأكيراح: موضع.

السدق وهو عيد مجوسي للنار وكانوا يوقدونها طوال الليل متغنين من حولها وراقصين، ومن أعيادهم عيد هرمزد إله الخير، وفيه يقول والبة بن الحباب[1]:

قد قابلتنا الكئوس ودابرتنا النحوس

واليوم هرمزد روز قد عظمته المجوس

وأهم أعيادهم عيد النيروز، وهو عيد الربيع، وكانوا يحتفلون به احتفالات صاخبة لأول الربيع حين تدخل الشمس برج الحمل، وفيه يقول أبو نواس[2]:

أما ترى الشمس حلت الحملا وقام وزن الزمان فاعتدلا

وغنت الطير بعد عجمتها واستوفت الخمر حولها كملا

واكتست الأرض من زخارفها وشى نبات تخاله حللا

فاشرب على جدة الزمان فقد أصبح وجه الزمان مقتبلا

وكانوا يحتفلون بعيد المهرجان بعده بمائة وأربعة وتسعين يوماً.

وكانت أعياد النصارى كثيرة أيضاً، فمنها عيد الميلاد وعيد الفصح وعيد دير الثعالب في الجانب الغربي لبغداد وعيد دير أشموني بقطربل، ومنها عيد الشعانين وكان عيداً قديماً للأشجار وخاصة أشجار الزيتون، وكانت الجواري النصرانيات يحتفلن به في قصر الخلافة، إذ يروى أحمد بن صدقة المغنى أنه دخل على المأمون في هذا العيد، فرأى بين يديه عشرين وصيفة رومية أدرن الزنار حول أوساطهن وتزين بالديباج وعلقن في أعناقهن صلبان الذهب وأمسكن في أيديهن بالخوص والزيتون، ولم يكد المأمون يراه حتى طلب إليه أن يغنيه في أبيات تصفهن، تجرى على هذا النمط:

ظباء كالدنانير ملاح في المقاصير

جلاهن الشعانين علينا في الزنانير[1]

---

١ ابن المعتز ص ٨٨ وروز: يوم بالفارسية.

٢ ديوان أبي نواس ص ٣١٣

وقد زرقن أصداغا كأذناب الزرازير[٢]

وأقبلن بأوسط كأوساط الزنابير[٣]

وغناه فيها ابن صدقة وقصت الوصائف في أثناء الغناء، وشرب المأمون على رقصهن وغنائه وأكثر من شربه حتى تغشاه السكر[٤].

ومما لا ريب فيه أن إدمان الخمر حينئذ دفع إلى كثير من المجون والعبث والإباحية، وكان المجتمع زاخراً بزنادقة وملاحدة وأناس من ديانات شتى مجوسية وغير مجوسية، فمضى كثيرون يطلقون لأنفسهم العنان في ارتكاب الآثام متحررين من كل قانون للخلق والعرف والدين. وكان من أهم العوامل التي هيأت لذلك السلع التي كانت تباع وتشترى من الجواري والقيان، فقد كن من أجناس وشعوب مختلفة، ولم يكن يشعرن إلا في النادر بشيء من الكرامة ولا كن يصطنعن شيئاً من التحفظ والاحتشام وسعر ذلك في قلوبهن النخاسون والمقينون الذين يبتزون عن طريق علاقتهن بالشباب والفتيان أموال السراة. وبذلك تحولت كثرتهن إلى أدوات فتنة وإغراء وريبة ومجون وعبث، وأخذن يتفنن في الحيل التي يجذبن بها قلوب الرجال من شعراء وغير شعراء، مداعبات لهم بالتبسم وغامزات بطرف العين وناشطات معهم بالسكر، ولم تكن الواحدة منهن تكتفي برجل واحد، فقد كن يستكثرن من اتخاذ الخلان سالكات إلى ذلك طرقاً مستقيمة ومعوجة، ووصف ذلك الجاحظ فقال: "ربما اجتمع عند القينة من معشوقيها ثلاثة أو أربعة.. فتبكى لواحد بعين وتضحك للآخر بالأخرى، وتغمز هذا بذاك، وتعطى واحداً سرها والآخر علانيتها وتوهمه أنها له دون الآخر وأن الذي يظهر خلاف ضميرها، وتكتب لهم عند الانصراف كتباً على نسخة واحدة، تذكر لكل واحد منهم تبرمها بالباقين وحرصها على الخلوة به دونهم، فلو لم يكن لإبليس شرك يقتل به ولا علم يدعو إليه ولا فتنة يستهوى بها إلا القيان لكفاه"[٥]. ويمضى

---

١ الزنابير: جمع زنار وهو خليط كان يشده غير المسلمين على أوساطهم تمييزا لهم.

٢ الزرازير: جمع زرزور وهو طير مفوف الريش.

٣ الزنابير: جمع زنبور وهو النخل.

٤ أغاني (طبعة الساسي) ١٩/ ١٣٨.

٥ ثلاث رسائل للجاحظ نشر فنكل ص ٧١.

ويمضى الجاحظ فيصور العلة التي جرت إلى فجر القينة وتهالكها على الإثم وأوزاره، فيقول: "كيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة وإنما تكتسب الأهواء وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ، وهى إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها فيما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث... وبين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مرءوة، وتروى الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت (أغنية) فصاعداً، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، وعدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ولا ترهيب من عقاب ولا ترغيب في ثواب، وإنما بنيت كلها على ذكر.. القيادة والعشق والصبوة والشوق والغلمة، ثم لا تنفك من الدراسة لصنعتها منكبة عليها تأخذها من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وإنشادهم مراودة".

وقد دفع هذا الفساد الخلقي الذي كان يشيعه القيان والجواري في هذا العصر إلى انتشار الغزل المكشوف الذي لا تصان فيه كرامة المرأة والرجل جميعاً، فقد كانت المرأة غير الحرة تبتذل ابتذالاً، وتطورت الحياة فلم يعد العرب هم الذين يستبدون بالشعر مصورين فيه مروءتهم وارتفاعهم بالمرأة عن الصغار والامتهان، بل مضى شعراء الفرس يستبدون بهن إذ كان أكثر الشعراء حينئذ منهم، فلم يعرفوا للمرأة حقها من الصيانة والارتفاع عن الفجر الفاجر، بل لعلهم كانوا يدفعونها إلهي دفعاً، بما كانوا ينظمون من أشعار صريحة عاهرة، على نحو ما يلقانا عند مطيع بن إياس ورفقته في الكوفة وبشار بن برد ومعاصريه في البصرة، وقد استحال شعر بشار إلى نداء صارخ للغريزة الجسدية، نداء يندى له جبين الشرف والخلق مما جعل وعاظ بلدته من أمثال واصل بن عطاء ومالك بن دينار يصرخون به أن يكف عن غيه، وتعالى صياحهم هم ونظرائهم حتى وصل سمع[1] المهدى، فهدده وأنذره أن ينزل به عقابه إن هو لم يزدجر ولم يرعو، واضطر أن ينزل على مشيئته. وبكى ذلك كثيراً في أشعاره. على أن تدخل المهدى جاء متأخراً، فقد عم طوفان هذا الغزل لا في البصرة والكوفة وحدهما بل أيضاً في بغداد عند أبي نواس وأضرابه، بحيث عد ظهور العباس بن الأحنف بغزله الطاهر والعفيف شذوذاً على جيله ومجتمعه.

---

١ انظر الأغاني ٣/ ١٨٢ وفى مواضع متفرقة من ترجمة بشار في هذا الجزء.

وليس معنى ذلك أن الحياة في بغداد كانت كلها مجوناً وتهالكاً على الفجر والعهر، فإن تعدد الزوجات الذي أباحه الإسلام وما أعطاه للرجل من حق تسرى الجواري، كل ذلك كان يحول دون سقوط بغداد جميعها في هوة الفساد، ومن أجل ذلك ينبغي أن لا نبالغ في تصور موجة المجون والعبث حينئذ وأن نظن أن أهل بغداد جميعاً قد تخلوا عن الحياة المستقيمة الطاهرة التي يحوطها الخلق والتقاليد والدين، إنما هو الكرخ حيث بيوت النخاسين والمقينين ومن يفدون عليها من الفتيان والشعراء للشراب والمجون في غير استخفاء ولا حياء.

وقد أشاع هؤلاء المجان والخلعاء آفة مزرية هي آفة التعلق بالغلمان المرد، وكان أول من اشتهر بالغزل فيهم والبة بن الحباب، وهو يصرح بذلك تصريحاً في غير مواربة ولا استحياء[1]، ويقال إنه هو الذي يتحمل وزر إفساد أبي نواس، بل هو في رأينا الذي يتحمل وزر العصر كله وما شاع فيه من هذا الغزل المقيت الذي يخنق كرامة الشباب والرجال خنقاً. وربما كان من أسباب شيوعه كثرة الغلمان الخصيان في بغداد وغيرها من مدن العراق، وكان منهم من تسقط عنه رجولته حتى ليلبس لبس النساء. وكان من الجواري من يلبس لبس الغلمان لفتاً للشباب والرجال، ويروى أن الأمين حين أفضت إليه الخلافة قدم الخصيان وآثرهم، فشاعت قالة السوء فيه، ورأت أمه زبيدة درءاً لتلك القالة أن تبعث إليه بعشرات من الجواري، ألبستهن لبس الرجال، وحتى ينصرف عن الخصيان فكن يختلفن بين يديه، وأبرزهن للناس، ولم يلبث كثيرون أن جاروه في هذا الصنيع[2]، وكن يسمين بالغلاميات، وعمت هذه البدعة في الساقيات[3] بالحانات، ولعل ذلك هو السر في أن أبا نواس كثيراً ما يتحدث عن بعض الجواري بضمير المذكر. ومن تتمة هذا التبادل بين الجواري والخصيان في الزي والهيئة حينئذ كثرة المخنثين بين المغنين والضاربين على الدفوف، وكانوا يتشبهون بالنساء في عاداتهن وثيابهن وضفر شعورهن وصبغ أظافرهن بالحناء[4].

---

١ البيان والتبيين ٣/ ٢٢٠ وانظر ترجمته في الأغاني (طبع الساسي) ١٦/ ١٤٢.

٢ المسعودي ٤/ ٢٤٤.

٣ أغاني ٥/ ٣٣٠.

٤ أغاني ٤/ ٧.

٤

الشعوبية والزندقة

نادى الإسلام في قوة بهدم الفوارق العصبية للقبائل والفوارق الجنسية للشعوب، حتى يسود الوئام بين أفراد الأمة الإسلامية، فلا عدناني ولا قحطاني ولا عربي ولا أعجمي، إنما هي أمة واحدة يتساوى أفرادها في جميع الحقوق ولا تفاضل فيها إلا بالتقوى والعمل الصالح، يقول جل شأنه: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير) ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة حجة الوداع: "أيها الناس إن ربكم واحد وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى"[1].

وهذا بلا ريب مثل أعلى أراده الإسلام لأمته، غير أنا لا نتصل إلى عصر على بن أبي طالب وما نشب لعهده من حرب صفين حتى نرى العصبيات القبلية تعود جذعة بين القبائل، وكأنهم لم ينسوا حياتهم القديمة، بل لقد اضطرمت اضطراماً لم تهدأ ثائرته طوال عصر بنى أمية. وقد مضى الأمويون ينحرفون عن جادة الدين في معاملة الموالى، فهم يرهقونها بكثرة الضرائب، وهم لا يسوون بينهم وبين العرب في الحقوق، إلا ما كان من عمر بن عبد العزيز، ولكن مدة حكمه كانت قصيرة، فلم يؤت عمله في هذا الجانب أي ثمرة.

وكانت هذه المعاملة السيئة للموالى سبباً في اضطغانهم على العرب، أو بعبارة أدق على الدولة الأموية، فشاركوا الخوارج والشيعة في الثورة عليها، وأخذ فريق منهم يمثلهم إسماعيل[2] بن يسار النسائي يفاخر العرب بحضارة أمته الفارسية وملوكها الساسانيين الذين غلبوا على الأرض. وعظم حقد الموالى على الدولة، وملأت الحفيظة والموجدة صدورهم، والتفت منهم جماعات كثيرة حول أبي مسلم داعية العباسيين بخراسان، وما لبثوا أن زحفوا في جيش ضخم أدالوا به للعباسيين

---

١ البيان والتبيين ٢/ ٣٣.

٢ أغاني ٤/ ٤١٠ وما بعدها.

من الأمويين وللفرس من العرب إدالة نفذوا في أثنائها إلى مناصب الدولة العباسية العليا، بحيث كان منهم أكثر القواد وأكثر الولاة، وخاصة حين استولى على أزمة الحكم البرامكة في عهد الرشيد وبنو سهل في عهد المأمون.

وكان هذا التحول الخطير في مقاليد الحكم وما أصبح للفرس من مكانة رفيعة في المجتمع العباسي الجديد سبباً في بروز نزعة الشعوبية نسبة إلى الشعوب الأعجمية، وهى نزعة كانت تقوم على مفاخرة تلك الشعوب – وفى مقدمتها الشعب الفارسي – للعرف مفاخرة تستمد من حضارتهم وما كان العرب فيه من بداوة وحياة خشنة غليظة. وكان منهم معتدلون وقفوا عند حد التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب حسب تعاليم الإسلام فلا عربي يفضل أعجمياً ولا أعجمي يفضل عربياً، إذ ليست العروبة ولا العجمة ميزة في نفسها تعلى من شأن صاحبها، فالناس جميعاً سواء وقد خلقوا من تراب ويعودون إلى التراب.

وكان بجانب هؤلاء المعتدلين متطرفون تجاوزوا التسوية بين العرب وغيرهم من الشعوب إلى الإزراء عليهم والنزول بهم دونها مرتبة أو مراتب، وهؤلاء هم الذين تصدق عليهم كلمة الشعوبيين، إذ قدموا الشعوب الأجنبية على العرب وتنقصوا قدرهم وصغروا شأنهم، وكانوا طوائف مختلفة فمنهم رجال السياسة الذين يريدون أن يستأثروا دون العرب بالحكم والسلطان، ومنهم قوميون كانوا يستشعرون مشاعر قوميتهم ضد العرب الذين اجتاحوا ديارهم وقوضا دولهم وهى مشاعر مازالت تحتدم في نفوس الفرس حتى احيوا لغتهم ودولتهم فيما بعد، ومنهم مجان خلعاء أعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ومجون واستمتاع بالحياة. وأشد من كل هؤلاء عنفاً وغيظاً من العرب الملاحدة الزنادقة الذين كانوا يبغضون الدين الحنيف وكل ما اتصل به من عرب وعروبة، وفيهم يقول الجاحظ: "إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأى الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدى إلى الضلال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة، وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وهى

السلف والقدوة"[1].

وكانت أهم مطاعنهم التي وجههوها إلى العرب أنهم كانوا بدواً[2] رعاة أغنام وإبل، ولم يكن لهم ملك ولا حضارة ولا مدينة ولا معرفة بالعلوم، فأين هم قديماً من ملك الأكاسرة والقياصرة؟ وأين هم من الحضارة الفارسية والرومية؟ وأين هم من علوم الهند والفرس والكلدان واليونان والرومان؟ وقد مضوا يزورون على خطابتهم واعتمادهم فيها على العصي وإشارتهم بها واتكائهم على أطراف القسي كما أزروا على أسلحتهم الساذجة وأطعمتهم الخشنة. وأخذوا يتتبعون مثالبهم ويحصونها عليهم ويستقصونها، وكان العرب بسبب أهاجيهم القبلية العنيفة قد وضعوا تحت أيديهم مادة وفيرة منها، فاستغلوها في ذمهم وأضافوا إليها مادة مختلفة صاغوها في قصص وأشعار وأضافوها إليهم. وبلغ من سوء نيتهم وشدة موجدتهم عليهم أن حاولوا تقبيح بعض شيمهم الرفيعة كشيمة الكرم، وقايسوا بين ما عندهم من المعارف والتعمق في السياسة وبين ما للعرب من حكم منثورة. وزعموا - فيما زعموا - أن الرسول فضلهم على العرب بمثل قوله: "لأنابهم أوثق مني بكم"[3] والوضع في هذا الحديث لا يحتاج دليلاً. وحاولوا أن يستلوا قريشاً قوم الرسول من العرب ويدخلوهم في غمارهم فزعموا أن سائلاً سأل الرسول عن أهله وأصل قريش فقال: نحن قوم من نبط كوثي[4].

ومن المحقق أن رجال الفرس البارزين من أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر ابن الحسين كانوا يذكون نار هذه الشعوبية فيمن حولهم من الفرس، وقد اختلف الناطقون عنها بين عالم وأديب وشاعر، نذكر منهم أبا عبيدة اللغوي الإخباري المشهور، وأصله من يهود فارس، وقد صب عنايته على تسجيل مثالب العرب وبلغ من فساد طويته أن طعن في بعض أسباب[5] الرسول

---

١ الحيوان ٧/ ٢٣٠

٢ انظر في هذه المطاعن البيان والتبيين ٣/ ٥ – ١٢٤ وكتاب العرب لابن قتيبة في مجموعة رسائل البلغاء بتحقيق محمد كرد على (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) والعقد الفريد ٣/ ٤٠١ وما بعدها.

٣ انظر تيسير الوصول ٣/ ١١١، ١٢٧.

٤ انظر مادة كوثي في معجم البلدان لياقوت.

٥ الفهرست (طبعة القاهرة) ص ٧٩.

obeikandl.com

صلى الله عليه وسلم. وليس من شك في أن عنايته بتلك المثالب هي التي دفعته إلى شرح نقائض جرير والفرزدق لما تحمل منها من وقود جزل، وكان في الوقت نفسه يعنى بالكتابة في فضائل الفرس[1]. ومنهم علان الشعوبي الفارسي وكان منقطعاً إلى البرامكة ونسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون، وألف في مثالب القبائل العربية كتاباً سماه الميدان[2]. وكان يستشعر هذه النزعة في أعماقه الكاتب الأديب سهل بن هرون الفارسي أحد صنائع البرامكة، وقد اسند إليه المأمون الإشراف على بعض خزائن بيت الحكمة، وكان يتعصب على العرب تصعباً مسرفاً، وصنف في ذلك كتباً كثيرة[3]، وقد افتتح الجاحظ كتابه البخلاء برسالة له أشاد فيها بالبخل وغض غضاً شديداً من فضيلة الكرم العربية.

وأهم شاعر في العصر أوقد نيران هذه الخصومة وظل يمدها بحطب جزل من أشعاره بشار بن برد وكان في عصر بنى أمية يكثر من الفخر بمواليه من قيس، حتى إذا حدث الانقلاب العباسي انقلب معه يتبرأ من العرب وولائهم ناسباً ولاءه إلى الله ذي الجلال، ويقول[4]:

أصبحت مولى ذي الجلال وبعضهم مولى الغريب فخذ بفضلك فافخر

وقد مضى يشن حرباً عنيفة على العرب، وكان أبوه طياناً يضرب اللبن، فاعتزي إلى أشراف العجم وملوكهم داخلاً - كما يقول الجاحظ - بذلك في بابا فسيح لا حجاب عليه ونسب واسع لا مدافع عنه. ولم يكتف بهذا النسب الذي ادعاه فقد مضى يزعم أنه ينتسب من قبل أمه إلى قياصرة الروم على نحو ما نجد في قصيدته[5]:

هل من رسول مخبر عني جميع العرب

وهى تصور ضراوة حقده العنيف على العرب، وقد مضى فيها يقارن بين بداوتهم الجافية وحضارة آبائه اللينة من الفرس والروم. وفى الحق أن شعوبيته كانت صارخة، إذ كان زنديقاً

---

١ الفهرست ص ٨٠ والبيان والتبيين ١/ ٣٠٨ والكامل للمبرد ص ٣٥١.

٢ الفهرست ص ١٥٣.

٣ الفهرست ص ١٧٤.

٤ أغاني ٣/ ١٣٩.

٥ ديوان بشار (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ١/ ٣٧٧.

وعدواً للعرب ودينهم الحنيف عداوة ترسب في ضميره وفؤاده.

وممن يسلكون في شعراء الشعوبية أبو يعقوب الخريمي، ولم يكن جاداً في تعصبه على العرب وخصومتهم، إنما كان يطلب التسوية بينهم وبين غيرهم من الشعوب، ولذلك ينبغي أن ينحى عن جماعة الشعوبيين، وأدخل منه فيهم أبو نواس وشعوبيته إنما ترجع إلى شغفه بالخمر وعكوفه على المجون وإعجابه بالحضارات الأجنبية، فهي شعوبية ناشئة عن الاستمتاع باللذات، وكان يبتغيها ما وجد إليها سبيلاً، ويجعلها غاية الغايات من حياته، وقد مضى يصور ذلك بدعوته إلى الانصراف عن الحياة المتبدية الخشنة وما يتصل بها من بكاء الأطلال والوقوف برسوم الديار إلى الحياة الناعمة المترفة وما يتصل بها من النشوة بالخمر والغلو في الشراب والإغراق في اللذات، وله في ذلك أشعار كثيرة. وكانت تسقط أسراب من هذه النزعة إلى شعراء النبط والهند، من مثل قول أبي الأصلع الهندي يفخر بالهند وما أخرجت بلاد الهند[1]:

لقد يعذلني صحبي ... وما ذلك بالأمثل

وفى مدحتي الهند ... وسهم الهند في المقتل

وفيه الساج والعاج ... وفيه الفيل والدغفل[2]

وينبغي أن نعرف أن الروح العربية – على الرغم من هذه الشعوبية – ظلت شامخة مسيطرة، يسندها الخلفاء وزعماء العرب من الولاة والقواد ومستشاري الدولة، كما يسندها الفقهاء والمحدثون وعلماء اللغة ورواة الشعر. وقد رد بعض شعراء العرب على الشعوبية وأصحابها على نحو ما نجد عند أبي الأصبع الأموي في تصديه لعبد الله بن طاهر حين افتخر في قصيدة له بنسبه من الفرس وبأبيه طاهر بن الحسين قاتل الأمين، فقد نقضها نقضاً بقصيدته[3]:

لا يرعك القال والقيل ... كل ما بلغت تضليل

---

١ الحيوان ٧/ ١٧.

٢ الساج: نوع ثمين من الخشب/ ، والدغفل: ولد الفيل.

٣ أغاني (طبع دار الكتب) ١٢/ ١٠٤ وابن المعتز ص ٣٠٠.

وتجرد نفر من الموالي أنفسهم للرد على أصحاب هذه النزعة الخبيثة وما تحمل من كيد للعرب ودينهم الحنيف على نحو ما يلقانا عند الجاحظ في كتابه البيان والتبيين وابن قتيبة في رسالته التي سماها "كتاب العرب" ومر بنا منذ قليل رأى الجاحظ في أنها كانت تدفع الموغلين فيها دفعاً إلى الإلحاد في الدين والزندقة.

وكلمة الزندقة ليست عربية إنما هي تعريب لمصطلح إيراني كان يطلقه الفرس على صنيع من يؤولون "الأفستا" كتاب داعيتهم زرادشت تأويلاً ينحرف عن ظاهر نصوصه، ومن أجل ذلك نعتوا به دعوة ماني ومن فتنوا بها من الفرس. وأخذ مدلول الكلمة يتسع في العصر العباسي ليشمل كل من استظهر نحلة من نحل المجوس، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل إلحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والإثم.

ومعروف أن جمهور الفرس قبل الإسلام كانوا مجوساً على دين زرادشت الذي ظهر في ديارهم حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد وما وضعه لهم من تعاليم[1] ضمنها كتابه "الأفستا" وفيه زعم أن للعالم إلهين هما "أهورامزد" إله النور خالق كل خير و "أهرمن" إله الظلمة خالق كل شر، وأن وراء الحياة الدنيا حياة أخرى يكون فيها حساب الشخص على أعماله فإما النعيم وإما الجحيم، وأن النار مقدسة طاهرة مما جعل الإيرانيين يقيمون لها المعابد في كل مكان. وظهر عندهم في القرن الثالث الميلادي داع يسمى ماني مزج في تعاليمه بين الزرادشتية والبوذية والنصرانية[2]، فأبقى من الأولى على عقيدة إلهي النور والظلمة واستباحة الزواج بالبنات والأخوات، وأخذ من الثانية عقيدة التناسخ وتحريم ذبح الحيوان والطيور، وأخذ من الثالثة الزهد والنسك، وفرض على أصحابه صلوات وأدعية كثيرة. وفى أواخر القرن الخامس للميلاد يظهر في إيران داع جديد هو مزدك وكان ثنوياً[3] يؤمن بإلهي النور والظلمة

---

١ انظر في تعاليم زرادشت الملل والنحل الشهرستاني (ط بعة كيورتن) ص ١٨٥ وتراث فارس (الطبعة العربية) ص ٣٦ وفجر الإسلام لأحمد أمين (الطبعة الأولى) ص ١١٨.

٢ راجع في ماني والمانوية الفهرست ص ٤٥٦ والشهرستاني ص ١٨٨ ومختصر تاريخ الدول لابن العبري ص ١٢٢ وفجر الإسلام ص ١٢٤.

٣ انظر في مزدك والمزدكية الفهرست ص ٤٧٩ والشهرستاني ص ١٩٢ وفجر الإسلام ص ١٣٠.

وتقديس النار، وقد مضى يدعو دعوة صارخة إلى العكوف على اللذات والشهوات والإمعان فيها، وأحل النساء وأباح الأموال وجعلها شركة للناس، وكان له - كما كان لماني - أتباع كثيرون.

وقد عامل الإسلام والمسلمون المجوس معاملة أهل الكتب السماوية، وبذلك ظلت المجوسية حية حياة قوية حتى العصر العباسي، ومر بنا ما كان من ثورات سنباذ والخرمية في خراسان وأذربيجان وطبرستان، وهى ثورات كانت تستوحى هذه الملل المجوسية السابقة، وكانت تسرى في نفوس كثيرين من نازلة بغداد والعراق سراً وجهراً، وكانت المانوية أخطرها جميعاً لما كانت تأخذ به من الزهد ومن بعض التعاليم المسيحية، مما جعلها تقترب من دعوات الديانات السماوية في السلوك وفى التخلق بالخلق الحسن، وإن افترقت عنها بعد ذلك افتراقاً شديداً في ثنويتها وتحليلها الزواج بالبنات والأخوات وما جلبته من بعض مذاهب الهند.

وتنبه المهدى لانتشار هذه الملل المجوسية المارقة في أمصار العراق ورأى فيها خطرا أي خطر على الدولة والإسلام، فأمر - كما أسلفنا في الفصل السابق - باتخاذ ديوان خاص لتعقب من يعتنقها من المسلمين ونصب لهم حرباً لا هوادة فيها ولا لين، فكل من تثبت عليه زندقته قدم وقوداً لتلك الحرب التي ظلت قائمة إلى عهد ابنه الرشيد. ويظهر أن الفرس كانوا قد نشطوا نشاطاً واسعاً في نشرها بين الناس ونشط معهم كثير من الزنادقة أنفسهم يترجمون كتب النحل الفارسية ويصنفون في الدعوة لها وفى تعاليمها، وأيضاً فهم وبعض النصارى نقلوا إلى العربية كتب بعض مارقة النصارى وملحدتهم مثل مرقيون[1] وابن ديصان[2]، يقول المسعودي: "أمعن المهدي في قتل الملحدين والمداهنين في الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنف من ذلك ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد

---

١ من أهل آسيا الصغرى وكان يعتنق المسيحية وانحرف عن تعاليمها وكون لنفسه مذهباً مستقلاً كان فيه الملهم لابن ديصان، وقد طردته الكنيسة سنة ١٤٤م.

٢ من أهل الرها ولد سنة ١٥٤ وكان يعتنق المسيحية وشذ على تعاليمها مكوناً عقيدة مستقلة فطردته الكنيسة.

ومطيع بن إياس من تأييد المذاهب المنانية[1] والديصانية والمرقيونية، فكثرت بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم في الناس"[2] ويقول الجاحظ: "لولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغبيائنا وظرفائنا ومجاننا وأحداثنا شئ من كتب المنانية والديصانية والمرقيونية.. ولكانت تلك الكتب مستورة عند أهلها ومخبأة في أيدي ورثتها فكل سخنة عين رأيناها في أحداثنا وأغبيائنا فمن قبلهم كان أولها"[3].

ولم ينصب المهدى وخلفاؤه للزنادقة حرب السيف وحدها، فقد نصبوا لهم أيضاً حرب اللسان: لسان المتكلمين الذين مضوا يجادلونهم ويفحمونهم وينقضون شبهاتهم بالبرهان القاطع والدليل الساطع، وصنفوا في ذلك الرسائل والكتب الطوال، ومن يقرأ كتاب الحيوان للجاحظ يجده يتوقف كثيراً ليورد رد النظام وغيره من المتكلمين على هؤلاء الزنادقة وكيف كانوا يسددون إليهم أدلة مصمية رادعة، وكان للمعتزلة في ذلك القدح المعلى، فهم الذين عاشوا يناظرونهم ويدفعون شرهم عن العامة والخاصة موضحين ما في شبههم من زيف وتمويه وما في عقائدهم من فساد ومناقضة للعقل المنطقي السليم.

وقد قتل كثيرون من رءوس الزنادقة لهذا العصر، يتقدمهم ابن المقفع الذي قتل لعهد المنصور، وفيه يقول المهدى: "ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع[4]". وقتل منهم كثيرون لعهد المهدى، منهم – في بعض الروايات – صالح بن عبد القدوس[5]، وكان يعتنق المانوية، ويحاضر فيها ويناظر فقتل وصلب على الجسر ببغداد[6] نكالاً للناس وعظة، ومنهم بشار وكان يعلن إشادته بالنار معبودة قومه المجوس ويفضلها على الطين كما يفضل إبليس على الإنسان، وبلغ من تحمس المهدى لقتله أن خرج بنفسه إلى البصرة ليشهد مقتله[7]. وكانت

---

١ النسبة إلى ماني إما مناني أو مانوي.

٢ المسعودي ٤/ ٢٤٢.

٣ ثلاث رسائل للجاحظ ص ٢٠.

٤ أمالي المرتضى (طبعة الحلبي) ١/ ١٣٤.

٥ يجزم ابن المعتز بأنه قتل في عهد الرشيد.

٦ أمالي المرتضى ١/ ١٣٤ وانظر ترجمته في تاريخ بغداد ٩/ ٣٠٣.

٧ أغاني (طبعة دار الكتب) ٣/ ٢٤٤.

البصرة – فيما يظهر – أكبر وكر حينئذ للزنادقة والملاحدة، ففيها نبت وعاش بشار وصالح بن عبد القدوس، ونرى محمد بن سليمان العباسي واليها للمهدي بقتل من ملاحدتها زنديقين كبيرين هما عبد الكريم[1] بن أبي العوجاء وحماد عجرد "وكان عبد الكريم مانوياً يؤمن بالتناسخ ويتخذ من سيرة ماني وسيلة لدعوته إلى الزندقة وتشكيك الناس في عقائدهم"[2] ولما قدم للقتل قال: "لئن قتلتموني لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة"[3]. وفي ذلك ما يصور جانباً من دس هؤلاء الزنادقة على الإسلام ومحاولة تشويه هدية الكريم. وقد تنبه لهم رواة الحديث النبوي فأسقطوا ما وضعوه وبينوا كذبه واختلافه. ومر بنا آنفاً أن حماد عجرد كان ممن يؤلفون الكتب في تأييد الإلحاد والزندقة استغواء للعامة وإفساداً لها وقد سلك معه المسعودى في هذا الاتجاه يحيى بن زياد الحارثي ومطيع بن إياس، ولا نجد ذكراً لقتلهما ولا لحبسهما على الزندقة، وربما لم تثبت عليهما ثبوتاً قاطعاً.

واشتد الهادي مثل أبيه في طلب الزنادقة حين ولى الخلافة لسنة ١٦٩ وقتل منهم جماعة[4] ومن بينهم أحد أبناء عمه داود بن على ويعقوب بن الفضل من سلالة الحارث بن عبد المطلب. وسرعان ما خلفه هرون الرشيد لسنة ١٧٠ فسار فيهم نفس السيرة، وممن تعقبهم يزيد[5] بن الفيض، ويونس بن أبي فروة وكان قد ألف كتاباً في مثالب العرب وعيوب الإسلام – بزعمه – وصار به إلى ملك الروم فأغدق عليه مالاً كثيرا[6]. وطلب الرشيد أيضاً على بن الخليل الشاعر لما ذاع من زندقته، غير أنه تبرأ ومنها فأطلقه[7].

وكان المأمون إذا سمع بزنديق أو زنادقة أمر بحملهم إليه وأحضرهم مجالسه حيث المتكلمون ودفعهم جميعاً إلى المناظرة، لعلهم يقنعونهم ويردونهم إلى الإسلام ومحجته المستقيمة،

---

١ لسان الميزان لابن حجر ٤/ ٥١ وما بعدها

٢ لسان الميزان ٢/ ٣٥٠.

٣ الفرق بين الفرق للبغدادي ص ٣٤٩.

٤ أمالي المرتضى ١/ ١٢٨

٥ طبري ٦/ ٤٠٨ وما بعدها.

٦ طبري ٦/ ٤٤٤

٧ انظر أمالي المرتضى ١/ ١٣٢ والحيوان ٤/ ٤٤٨ والطبري ٦/ ٤٤٤.

وكان يناظرهم هو نفسه أحياناً[1]، فإذا لم يكفوا عن غوايتهم أمر بقتلهن ويقال أنه بلغه خبر عشرة رجال في البصرة يجتمعون على المانوية، فأمر بحملهم إليه، فلما أدخلوا عليه امتحنهم، وحاول أن يردهم عن ضلالهم، غير أنهم ثبتوا على عقيدتهم الفاسدة فأمر بقتلهم جميعاً[2]. ومر بنا في الفصل السالف ما كان من ثبوت الزندقة على الأفشين قائد المعتصم التركي، مما جعله يزج به في غياهب السجون حتى مات وصلب بعد موته.

ومما لا ريب فيه أن خلفاء بنى العباس لم يكونوا يقتلون على الزندقة إلا بعد ثبوتها على صاحبها لا يرقى إليه شك، ويظهر أنهم إنما كانوا يقتلون من ينزع نزعة مجوسية وخاصة أصحاب النزعة المانوية كما تشهد بذلك الأخبار السابقة، فكثرة المقتولين تضاف إليهم صفة المانوية، ويؤكد هذا تأكيداً قوياً وصية المهدي لابنه الهادي بتتبع الزنادقة، فقد وصفهم له وصفاً يدل على أنه إنما أراد من يعتنقون تعاليم المانوية[3]. ومعنى ذلك أنهم لم يكونوا يقتلون على الإباحة المسرفة والإمعان في المجون ولا كانوا يعاقبون عليها عقاباً صارماً، وكان حرياً بهم أن يشددوا في ذلك حتى لا تؤول الحياة في أمصار العراق إلى ما آلت إليه في بعض جوانبها من الفساد والتحلل الخلقي.

---

١ الحيوان ٤/ ٤٤٢.

٢ المسعودي ٣/ ٣٣٢.

٣ طبري ٦/ ٤٣٣ وما بعدها.

obeikandl.com

٥

الزهد

ليس معنى ما قدمنا من حديث عن الزندقة والمجون أن المجتمع العباسي كان مجتمعاً منحلاً أسلم نفسه للإلحاد والشهوات، فالإلحاد والزندقة إنما شاعا في طبقة محدودة من الناس كان جمهورها من الفرس، وكانت موجة المجون أكثر حدة، ولكنها لم تكن عامة في المجتمع، بل كانت خاصة بالمترفين ومن حولهم من الشعراء والمغنين. أما عامة الشعب فإنها لم تكن تعرف زندقة ولا مجوناً، أما من حيث الزندقة فإنها لم تكن تعادى الإسلام وصاحبه، بل كانت مسلمة حسنة الإسلام تهتدي بأضوائه وتجرى على سننه، وأما من حيث المجون فإنها لم تكن مترفة ولا ثرية، بل كانت تعيش على الكفاف، بل كان كثير منها يعيش في البؤس والضنك والضيق وقلوبه تتقطع حسرات على ما تحظى به الطبقة المترفة من أسباب النعيم. وكانوا ساخطين سخطاً شديداً على كل ما يرونه حولهم من جموح الأهواء والإمعان في المجون، وهو سخط اتسع في أيام الفتنة بين الأمين والمأمون حين حوصرت بغداد واستطال شر المجان والعهار، وظلت من ذلك بقية في سنتي ٢٠١ و ٢٠٢ فإذا جماعات كبيرة تتطوع للنكير عليهم والأخذ على أيديهم[١].

وإذا كانت حانات الكرخ ودور النخاسة والمقينين به اكتظت بالجواري والإماء والقيان والمغنين، فإن مساجد بغداد كانت عامرة بالعباد والنساك وأهل التقوى والصلاح، وكان في كل ركن منها حلقة لواعظ يذكر بالله واليوم الآخر وما ينتظر الصالحين من النعيم المقيم والعاصين من العذاب والجحيم، وكان من الوعاظ من يقتحم قصر الخلافة ليعظ الخلفاء على نحو ما هو معروف عن عمرو بن عبيد في وعظه للمنصور[٢] وصالح بن عبد الجليل في وعظه للمهدى[٣] وابن

---

١ طبري ٧/ ١٣٦ وما بعدها.

٢ انظر عيون الأخبار ٢/ ٢٣٧ والعقد الفريد ٣/ ١٦٤.

٣ عيون الأخبار ٢/ ٣٣٣ والعقد الفريد ٣/ ١٥٨.

obeikandl.com

السماك في وعظه لهرون الرشيد[1] ومن كلامه: "الدنيا كلها قليل والذي بقى منها في جنب الماضي قليل، والذي لك من الباقي قليل، ولم يبق من قليلك إلا القليل"[2].

وكان الوعظ في هذا العصر يلتحم بالقصص للعظة والعبرة، وهو التحام قديم منذ تميم الداري وكعب الأحبار في عصر الخلفاء الراشدين ومنذ قصاص الفتوح من أمثال أبي سفيان بن حرب. وقد ازدهر هذا الوعظ القصصي في عصر بنى أمية عند الحسن البصري وأضرابه، وتكامل ازدهاره في هذا العصر. وينبغي أن نميز بين هذا الضرب من القصص الديني وقصص آخر كان الناس يجتمعون حول أصحابه في طرقات بغداد وغيرها من أمصار العراق ليسلوهم بالنوارد والحكايات القصيرة، ومن أجل ذلك قرنوا بأصحاب المساخر من مثل القرادين[3]. وقد كثر قصاص الوعظ الذين كانوا يدفعون الناس إلى العبادة ورفض المتاع الدنيوي وسلوك السبيل الواضحة إلى نعيم الآخرة كثرة مفرطة[4].

وكان بجانب هؤلاء القصاص الواعظون كثير من النساك، ومن الصعب استقصاؤهم إذ كانوا منتشرين في كل الأمصار، وكان يحيون حياة زهد خالصة كلها تبتل وعبادة وتقشف وانقباض عن الاستمتاع بالحياة وملذاتها وانصراف عن كل نعيم فيها انتظاراً لما عند الله من النعيم السرمدي الذي لا يزول. وفى البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد منثورات رائعة من أقوال مشاهيرهم أمثال سفيان الثوري المتوفى سنة ١٦١ وداود الطائي المتوفى سنة ١٦٥ وعبد الله بن المبارك المتوفى سنة ١٨١ والفضيل بن عياض المتوفى سنة ١٨٧ وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ وكان يقول: "فكرك في رزق غد يكتب عليك خطيئة[5]" ويقول: "لا يمنع أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله قد استجاب دعاء شر الخلق وهو إبليس (قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين)، وكان يستحب أن يقال في الدعاء: اللهم استرني بسترك

---

١ طبري ٦/ ٥٣٨ والعقد الفريد ٣/ ١٦٤.

٢ النجوم الزاهرة ٢/ ١١٢.

٣ أنظر ما كتبه الجاحظ عن أبي كعب الصوفي في كتابه الحيوان ٣/ ٢٤ وراجع التاج ص ٤٠.

٤ القصاص لابن الجوزي ص ١٨.

٥ عيون الأخبار ٢/ ٣١٥.

الجميل[1]. ومن مشهوري هؤلاء النساك عبد الواحد بن زيد المتوفى سنة ١٧٧ وهو الذي أنشأ أول رباط أو أول صومعة للناسكين في عبادان بالقرب من الكوفة، وفيهم وفى رباطهم يقول أبو العتاهية[2]:

سقى الله عبادان غيثاً مجللاً ... فإن لها فضلاً جديداً وأولاً

وثبت من فيها مقيماً مرابطاً ... فما إن أرى عنها له متحولاً

إذا جئتها لم تلق إلا مكبراً ... تخلى عن الدنيا وإلا مهللاً

فأكرم بمن فيها على الله نازلاً ... وأكرم بعبادان داراً ومنزلاً

وقد أخذت تقام في هذا العصر رباطات أخرى في أنحاء العالم الإسلامي، وكانت الدولة التي تقيمها أحياناً، ففي أخبار الفضل بن يحيى البرمكي أنه شخص إلى خراسان في سنة ثمان وسبعين ومائة، فبنى المساجد والرباطات[3].

ويدل أكبر الدلالة على ارتفاع موجة النسك حينئذ أنه أخذت تنبثق بين النساك مقدمات نزعة التصوف متمثلة في شيوخ كثيرين، في مقدمتهم إبراهيم ابن أدهم البلخي المتوفى سنة ١٦٠ ورابعة العدوية المتوفاة بالبصرة سنة ١٨٠ وشقيق البلخي تلميذ ابن أدهم المتوفى سنة ١٩٤ ويقال إنه أول من تكلم في التصوف وعلوم الأحوال بكورة خراسان وأن له يداً طولي في إشاعة مبدأ التوكل[4]. ومن مشهوريهم معروف الكرخي من أهل كرخ بغداد المتوفى سنة ٢٠٠ ومن مأثور كلامه: "من كابر الله صرعه، ومن نازعه قمعه، ومن ما كره خدعه، ومن توكل عليه منعه ومن تواضع له رفعه"[5]. ومن مشورتهم أيضاً عبدك الكوفي وأبو سليمان الداراني الشامي المتوفى سنة ٢٠٥ وبشر بن الحارث الحافي الخراساني نزيل بغداد المتوفى سنة ٢٢٧ وكان يقول: "الجوع يصفى الفؤاد

---

١ النجوم الزاهرة ٢/ ١٥٨.

٢ ديوان أبي العتاهية (طبع بيروت) ص ٢١٨.

٣ الجهشياري ص ١٩٠ وما بعدها.

٤ النجوم الزاهرة ٢/ ٢١ وانظر في تاريخ وفاته ٢/ ١٤٦.

٥ النجوم الزاهرة ٢/ ١٦٧.

ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق، والمتقلب في جوعه كالمتشحط في دمه في سبيل الله، وإذا أعجبك الكلام فاصمت، وإذا أعجبك الصمت فتكلم[1]" وتلقانا من هؤلاء المتصوفة جماعة بمصر على رأس المائتين[2].

وينبغي أن لا نبالغ فنزعم أن التصوف نضج في هذا العصر، إنما أخذت مقدماته في البروز والظهور، أما تكونه التام فقد حدث في العصر التالي، أما في هذا العصر فقد تفتحت تباشيره الأولى، وقد حاول بعض المستشرقين أن يربط ربطاً وثيقاً بين زهد هؤلاء النساك وبين زهد الرهبان المسيحيين الذين كانوا منتشرين في العالم الإسلامي وخاصة في العراق والشام ومصر[3]، ونحن لا نمنع التأثر العام، ولكن ينبغي أن يستقر في نفوسنا أن الزهد الإسلامي يختلف عن الزهد المسيحي في جوهره إذ الزهد عند المسيحيين ورهبانهم يقوم على أساس من فكرة الخطيئة، والإسلام لا يقر هذه الفكرة ولا ما تؤدى إليه من تعذيب الجسد، فإن لبدن المسلم عليه حقاً، ومن أجل ذلك نهى الإسلام عن العزوبة، بينما دعت إليها المسيحية.

وقد حاول جولد تسيهر أن يربط بين مقدمات نزعة التصوف الإسلامية وبين تعاليم الأفلاطونية الحديثة وما يتصل بها من مذهب الفيض ووحدة الوجود[4]، كما حاول أن يربط بين هذه المقدمات وبوذية الهند، إذ رأى في سيرة إبراهيم بن أدهم التي صورها بعض من تحدثوا عن أخباره ما يحكى محاكاة تامة سيرة بوذا، إذ يقال إنه كان ابن ملك من ملوك بلخ ورأى من إحدى نوافذ قصره رجلاً مسكيناً فتدبر أمره، ولم يلبث أن خلع ثوب الإمارة إلى الأبد ولبس أطماراً بالية وفارق قصره وزوجه وأولاده إلى الصحراء سائحاً مطوفاً عابداً ربه[5]. وهى سيرة لابن أدهم صنعتها له الأجيال المتأخرة[6] فلا يصح أن تحمل على العصر العباسي الأول ولا أن تتخذ دليلاً على

---

١ النجوم الزاهرة ٢/ ٢٥٠.

٢ كتاب الولاة والقضاء للكندي ص ١٦٠.

٣ العقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيهر (طبعة دار الكاتب المصري) ص ١٣١ وما بعدها.

٤ العقيدة والشريعة في الإسلام ص ١٣٦.

٥ العقيدة والشريعة في الإسلام ص ١٤٣.

٦ قارن بين السيرة التي حكاها جولد تسيهر بما قاله ابن تغرى بردى فى النجوم الزاهرة ٢/ ٣٦ وهو من المصادر المتأخرة، يقول: "كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه شريفاً كثير المال والخدم والجنائب (الدواب) والبزاة، فبينما

أن متصوفته كانوا يتأثرون البوذية وما ترويه عن بوذا الناسك. وقد رأى جولد تسيهر الجاحظ يروى خبراً عن ناسكين سائحين[1] فقال إنهما من ناسكي البوذية، كي يدعم دعواه، وهما من ناسكي المانوية.

والحق أن جولد تسيهر يبالغ في كل ما رآه من هذا الرطب بين مقدمات التصوف الإسلامي والبوذية من جهة والأفلاطونية من جهة أخرى. يمكن أن يكون قد حدث ذلك في بعض جوانب التصوف فيما بعد هذا العصر إذ كان التصوف لا يزال يستمد من معين الإسلام ذاته كما لاحظ ذلك نيكلسون[2]، وهو حينئذ لم يكن أكثر من نمو للزهد الإسلامي وما ارتبط به من نسك، وآية ذلك القاطعة أن نظريتي الفيض ووحدة الوجود لم تمدا ظلالهما عليه حتى هذا التاريخ.

على أن هذا الزهد الإسلامي وما ارتبط به من مقدمات التصوف كانت تجرى بجانبه أسراب من زهد فاسد هو زهد الزنادقة الذين اعتنقوا تعاليم المانوية على نحو ما يلقانا في أشعار صالح بن عبد القدوس المقتول لمانويته وهى تزخر بالترغيب عن متاع الدنيا الزائل حتى ليقول ابن المعتز إن له في ذلك ما ليس لأحد[3].

ومعنى ذلك أن العصر العباسي الأول شهد لونين من الزهد: زهداً إسلامياً خالصاً أعد للنسك والتصوف، وزهداً مانوياً مارقاً، وهو الذي يمكن أن يوصل بينه وبين البوذية، إذ المانوية تتأثر بها – كما مر بنا – من قديم. وقد مضت الدولة تقاومه وتقاوم أصحابه مقاومة عنيفة على نحو ما أسلفنا، وكان من تمام النسك في هذا الزهد المارق المنحرف أن يعيش الناسك من سؤال الناس[4].

إبراهيم يأخذ كلابه وبزاته للصيد وهو على فرسه يركضه إذ هو بصوت يناديه: يا إبراهيم ما هذا العبث؟ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً، اتق الله وعليك بالزاد ليوم الفاقة، فنزل عن دابته ورفض الدنيا. وانظر صفة الصفوة ٤/ ١٢٧.

١ الحيوان ٤/ ٤٥٦ وما بعدها.

٢ انظر كتاب في التصوف الإسلامي وتاريخه لنيكلسون (طبع مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص٣.

٣ ابن المعتز ص ٩١.

٤ الحيوان ٤/ ٤٥٦.

obeikandi.com